

روايات الهلال

أمسيات فترية ديكانكا

نيقولاى جوجول

الجزء الأول



روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٦٤ - ابريل ١٩٧٩ - جمادى الاولى ١٣٩٩
No. 364 - April 1979

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد
نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبوالمجد

رئيس التحرير : الدكتور حسين مؤنس
سكرتير التحرير : موسى عبيد

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي - ١٢ عددا - في جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان
بالبريد العادي . وبلاد اتحادى البريد العربى والأفريقي وباكستان ثلاثة ونصف
جنوب مصرى بالبريد الجوى . وفي سائر أنحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادي
وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقبول الاشتراكات بدار الهلال في
ج. ٥٠ ع. ٥٠٢ بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لأم
مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب
أسسما للبيع للجمهور في البلاد العربية للاعداد العادية من «روايات الهلال»
الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩:

بسعر ٢٠ قرشا للقارىء في مصر

سوريا ٤٠٠ ق. س « ثلاثمائة قرشا سوريا »

لبنان ٢٥٠ ق. ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »

الأردن ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا أردنيا »

الكويت ٢٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »

العراق ٤٠٠ فلس « أربعمائة فلسا عراقيا »

السعودية ٤٠٤ ريال « أربعة ريال ونصف ريال »

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد بن العرب القاهرة .

تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »



روايات الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة الفنانة
نماضر محمد تركي

أحاديث
قرب
قرية
ديكانكا

الجزء الأول



نيقولاى جوجول



إبراهيم زكى خورشيد

دار الهدى

الجزء الأول



مقدمة

« امسيات قرب قرية ديكانكا : اليس هذا بمعجيب ؟ وما عسى ان تكون هذه الامسيات ؟ وكيف يقمها على العالم رجل يرى النحل ! اللهم ارحمنا ! كأنما لم ينتف من ريش الأوز ما يفى بالحاجة الى الأقلام ، ولم يصنع من الخرق ما يكفى من الورق ، ولم تقنع بقع المداد بما لوثت من أصابع الناس على اختلاف طبقاتهم ! ثم تأبى النزوة بمرى نحل الا أن يحذو حذوهم ! أى ، ان ما يطبع فى ايامنا هذه لاكثر مما يسد حاجة المرء الى ورق اللف ! »

لقد دار فى خلدى منذ شهر ان الناس سوف يتناولوننى بمثل هذا الحديث ، فان فرويا على شاكلتى اذا أخرج أنفه من مكنه ودسه فى هذا العالم الكبير كان مثله كمثلك انت سواء بسواء اذا قصدت دارا لسيد عظيم من الوجهاء ، يهرع اليك الجميع ويلتفون حولك حتى تحس بأنك كالبله المأفون . ولو اقتصر الأمر على خدم الطبقات العليا لهان عليك الأمر كثيرا ، ولكن كل دعى حقير تعس يتسكع فى الفناء الخلفى خليق بأن يضايك أيضا ، وبهب هؤلاء فيدقون الأرض بأقدامهم ويصيحون بك : « الى أين ؟ وماذا تريد ؟ أخرج أيها الفلاح » ، وانى لمستطيع أن أقول لكم .. ولكن ما جدوى الحديث ؟ لخير لى أن اذهب مرتين فى السنة الى ميرجورود حيث لم ير وجهى مساعد قاضى الناحية ولا القس الموقر فى السنوات

الخمس الماضية ، من ان اختلف الى مجالس علية القوم . على انك اذا اختلفت الى مجالسهم حق عليك ان تواجه النتائج مهما يكن من أمرها .

ونحن في ديارنا ايها القراء الأعزاء - وانا لا اقصد الاساءة « فلا يضيرنكم ان يوجه مربي نحل مثلى الخطاب اليكم كما لو كنتم بعض اصدقائه أو خلانه القدماء » أجل ، لقد جرت العادة في ديارنا ان الفلاحين في الدساكر يدابون دائما على التسلق الى مصاطب المواعد يهجمون اليها طول الشتاء متى فرغوا من عملهم في الحقول ، ونضع نحن مربي النحل نحلنا في قيو مظلم ، فاذا حل ذلك الوقت من السنة الذي تختفى فيه الكراكي من السماء وثمار الكمثرى من الشجر ، رأيت بلا ريب نورا يتلألأ في مكان من طرف الدسكرة عندما ياتي المساء ، وسمعت على البعد ضحكا وغناء وعزفا على القيثارة الروسية « البلايكا » ، وقد تسمع أحيانا صوت كمان ولفظ وضوضاء .

تلك هي الحفلات التي نقيمها في المساء ! وهي أشبه ما تكون بحفلة الرقص ، وان كنت لا انكر أنها لا تشبهها تماما ، ذلك انك لا تذهب الى حفلة راقصة الا لتقفز متبخترا هنا وهناك ، أو تتشاب ويدك على فمك . اما حفلاتنا فان الفتيات يجتمعن فيها معا في كوخ واحد لا ليرقصن بل ليشتغلن بمغازلهن ومنادفهن ، ويحق لك ان تقول انهن يقمن بعملهن أولا ، فالمغازل تطن والأغاني تنساب متصلة متداركة ، ولا ترفع احداهن راسها عن شغلها ، حتى اذا اقتحم الفتيان الكوخ ومعهم عازف الكمان ساد الهرج والمرج ، وبدا اللهو والمرح ، واندفع القوم الى الرقص، ولن استطيع ان احدثكم ما ياخذون به انفسهم من العاب .

ولكن امتع ما يفعلون جميعا هو ان يجتمعوا ويبدءوا في حل الالغاز،

او يكتفوا بتبادل الحديث ، يا الهى ! اى قصص كانوا يقصون !
واى نوادر من الايام الخالية كانوا ينبشون ! ويا للأمور المخيفة
التي كانوا يصفون ! على ان ما كان يروى من القصص فى كوخ
بانكو مربى النحل الاحمر الشعر لم يكن له مثيل فى اى مكان
آخر. اما السبب الذى جعل القرويين يلقبوتنى بذى الشعر الاحمر
فانى عاجز حقا عن تبيانه . وانى لا اعتقد ان شعرى قد اصبح الآن
اميل الى المشيب منه الى الاحمرار، ولا يخفى عليكم ان المرء فى
ناحيتنا اذا لقب مرة بلقب لصق به طول عمره . ويجتمع خيار
القوم ذات مساء فى كوخ مربى النحل ويجلسون الى المائدة ، وما
عليك بعدئذ الا ان تنصت اليهم ! وارجو ان تعلم ان هؤلاء الضيوف
ليسوا بحال من الطبقة الوضيعة ، او من الفلاحين ، بل ان زيارتهم
لخليفة بأن يشرف بها رجل اعلى مكانة من مربى النحل ، فهل
تعرف مثلا فوما جريجوريفتش قندلفت كنيسة ديكانكا ؟ اى راس
يحملة هذا الرجل بين كتفيه ا وى قصص ينطلق بها لسانه !
ولتجدن فى هذا الكتاب قصتين من قصصه . ولا يرتدى فوما ابدا
سترة من غزل البيوت كتلك التي نعهدها فى غيره ممن يلون مثل
منصبه فى القرى ، وحاشاه ان يفعل ذلك ! بل انه ليلقاك دائما
حتى فى ايام العمل ، مرتديا عباءة فى لون عصيدة البطاطس الباردة
مصنوعة من نسيج ناعم ، اشترى الياردة منه بستة روبلات من
بلتاوة . اما حداؤه الطويل الرقبة فلم يقل احد فى الدسكرة قط
ان رائحة القطران تنبعث منه ، وما من احد يجهل انه يجلوه
باحسن انواع الشحم ، وانا اعلم ان كثيرا من الفلاحين سرهم ان
يضعوا بعض هذا الشحم فى ثريدهم ، ولا يحق لانسان ان يزعم
ابدا انه يمسح انفه فى طرف قميص عباءته ، كما يفعل الكثيرون

من ارباب مهنته ، حاشاه ! بل انه ليخرج من صدره منديلا ابيض نظيفا طوى في عناية وطرزت اهدابه بالقطن الاحمر ، ثم يستعمله على خير وجه يستعمل فيه ، ويعود فيطويه كشأنه اثنتى عشرة طية ، ثم يرده الى مكانه في صدره .

وثمة رجل آخر : شاب مهذب ظريف حتى لتحسبه في يسر مساعدا لقاضى او ملاحظا لأرض ، فاذا قص عليك قصة رفع اصبعه، واخذيمعن النظر في أنملته ، وهو يعمد الى التلاعب بالألفاظ وتنميق الكلمات مما لا تجد له مثيلا الا في كتاب ، وتروح تنصت اليه ثم تنصت حتى تملكك الحيرة ويرتبك عقلك ، فلا تستطيع مهما جهدت أن تعرف لما يقول رأسا من ذنب . ترى من أين التقط كل هذه الكلمات ؟ وقد سخر به فوما جريجوريفتش يوما لهذا السبب ، وقص عليه قصة فتى كان يتلقى دروسا في اللاتينية على شماس ثم عاد الى ابيه عالما باللفة اللاتينية حتى لقد نسى لفة بلادنا ، وأخذ يلحق بآخر كل كلمة مقطعا لاتينيا ، فالمجرفة عنده مجرفوس والسلك سمكوس . واتفق يوما أن رأى وهو في صحبة ابيه في الحقول مجرفة فسأله « ماذا تسمى هذه يا ابي ؟ » ، ولم ينظر الفتى الى موضع قدمه فوطيء اسنان المجرفة فارتفع مقبضها قبل أن يستطع ابوه الاجابة ، وأصابته في رأسه ، فصاح وهويضع يده فوق جبهته ويقفز نصف ياردة في الهواء : « الا لعنة الله على هذه المجرفة ، وليطوح الشيطان بأبيها من فوق الجسر ! » وهكذا تذكر اسمها اخيرا .

ولم ترق هذه القصة في عين قصاصنا المدع . فنهض من مقعده دون أن ينبس ببنت شفة ، ووقف في وسط الغرفة وقد انفرجت ساقاه ، ومال برأسه قليلا الى الامام ، ودس يده في الجيب الخلفى

لسترته التي يحاكى لونها لون البازلاء الخضراء ، واخرج صندوق سعوطه المستدير المطلى باللك ، وتقر على وجه القائد المنقوش على الصندوق ، ثم أصاب من السعوط المخلوط بمسحوق خشب الدرदार وأوراق نبات الكاشم قدرا مليحا ، وثنى مرفقه ورفع يده الى أنفه ونشقه دفعة واحدة دون أن يستعين بإبهامه ، أجل ، فعل ذلك كله دون أن ينبس ببنت شفة، ولم يتمم بشيء الا عندما أخرج من جيب آخر من جيوب سترته منديلا أزرق من القطن منقوشا بمربعات بل انى لاظن أن هذا الشيء كان يدور حول الحكمة التي تنهى المرء عن أن يلقي بدرره أمام الخنازير ، وقلت أحدث نفسي: «ان خلافا سوف ينشب » ، فقد بدا لى من أصابع فوما جريجوريفتش انه يهم بابداء سخطه ، ومن حسن التوفيق أن زوجتى العجوز قد تخيرت تلك اللحظة بالذات لوضع الكعك الساخن والزبد على المائدة .

واقبلنا جميعا نصيب منها ما نصيب ، ومد فوما جريجوريفتش يده ليتناول كهكة ساخنة ، فصرفه ذلك عن أن يومىء بها إيماءة نابية ، وراح الجميع كشأنهم يتحدثون بمهارة زوجتى فى الطهو .

ولدينا قصاص آخر ، ويحسن بنا الا نفكر فيه ليلا ، فان فى جمعته من القصص المخيفة ما يقف له شعر رأسك ، وقد أهملت قصصه عمدا ، ذلك أن خيار الناس قد يتملكهم الفزع حتى ليخافون من مربى النحل خوفهم من الشيطان نفسه ، ولو مد الله فى عمرى الى أن أدرك العام الجديد واخرج مجدا آخر ، فمن يدرى لعلى أوقع الرعب فى قلوب قرائى الكرام بشيء من قصص الأشباح والعجائب التى شاهدها الناس فى الأيام الخالية فى هذا البلد المسيحى ، ولعلكم تجدون فيها بعض قصص يروها مربى النحل نفسه لأحفاده ، وأنا زعيم بأن لدى منها ما يكفى ملء عشرة

مجلدات لو شاء الناس ان يقرءوا ويعسوا ، ولم اصب انا بافة الكسل ، فتعوقنى عن التفتيش عن هذه القصص فى زوايا مخيلتى .

ولكن دعنا من هذا ! فقد نسيت ما هو اهم : ذلك اننى ارجوكم ايها السادة ان تسلكوا الطريق العام راسا الى ديكانكا عندما تاتون لزيارتى ، وقد وضعت الاسم على صفحة الغلاف عن قصد حتى يكون وصولكم الى دسكرتنا اسهل وايسر ، ولا شك عندى فى انكم سمعتم الكثير عن ديكانكا ، وليس منزل مربى النحل فيها سبة فى جبين منازلها . اما الحديقة فانا زعيم بانكم لا تجدون مثلها فى مدينتكم سانت بطرسبرغ ، وما عليكم عندما تبلغون ديكانكا الا ان تسالوا اى غلام من الغلمان الصغار الذين يرتدون قميصا قذرا ويرعون الاوز : « اين يقيم بانكو الاحمر الشعر مربى النحل ؟ » فيجيبكم بقوله : « هناك » ، وهو يشير باصبعه ، واذا شئتم قادكم الى الدسكرة ، ويجدر بى ان اسالكم شيئا واحدا هو الا تسىروا مختالين واضعين ايديكم خلف ظهوركم ، فان طرق قريتنا ليست فى نعومة طرق المركبات المؤدية الى قصوركم ، فقد كان فوما جريجوريفتش يسوق عربته قادمًا من ديكانكا فى العام الاسبق فسقط فى حفرة هو وفخه الجديد وفرسه الاشقر وكل ما كان فى العربة ، بالرغم من انه كان يسوق بنفسه ويلبس نظارة ايضا .

على اننا سنقدم اليكم حين تصلون اطيب ماذقتم فى حياتكم من البطبخ ، وصدقونى انكم لن تجدوا فى اية دسكرة اخرى شهدا اشهى من شيدنا ، فاذا جئتم بقرص من اقراصه انتشر فى الغرفة عبر لا يخطر ببال ، وبدا لكم صافيا صفاء الدمعة او البلورة الثمينة التى ترونها فى لاقراط . وما بالكم بالفطائر التى ستتحكمم بهـ

زوجتى العجوز ! يا لها من فطائر كالسكر أو هى السكر بعينه !
فما أن تمس شفاهكم حتى يذوب الزبد فيها أو يكاد . تالله ان
هؤلاء النسوة لقادرات على ان يأتين بكل شيء ! وقد ذقتم فى حياتكم
خمر الكمثرى المطيبة بالخوخ البرى او احتسيتم فودكا الزبيب
المزوجة بالبرقوق ، او البليلة باللبن ؟ يا الهى ! ما اكثر ما عندنا
من لذائل وأطايب ! وما ان تشرعون فى اكلها حتى تعلموا انها من
خصائص المآدب ولا شك ، ولقد حدث فى العام الماضى .. ولكن
ما بالى انساق فى الحديث هذا الانساق ؟ حسبكم ان تأتوا لزيارتنا
بأسرع ما يمكنكم ، فنقدم لكم من الطيبات ما يجعل السننكم
تتحدث بها مع كل من تلقون من الناس .

باتكو الأحمر الشعر

مربى النحل

سوق سورتشنتی



لقد سئمت الكوخ
فآه لو أخذتمونى من هنا
الى حيث الضجيج والعجيج
والفتيات يرقصن فرحات
والفتيان يرحون ويلهون !
(من قصة شعرية قديمة)

لشد ما يبهج القلب وبروع النفس ان تشهد يوما من ايام
الصيف فى اوكرانيا ! وما أمتع الدفء تحس به عندما يتألق ضوء
الظهيرة فى غمرة السكون والحرارة القائظة ، ويبدو اديم السماء
فى زرقته وامتداده الفسيح وقد استدار كالقبة البديعة الحسن
وسنان غارقا فى نعيم الكسل والاسترخاء ، يعانق الأرض الجميلة ،
ويضمها الى صدره الأثيرى ضما قويا ، لا تفشاه سحابة ، ولا تسمع
من تحته نامة ولا صوت ، ويشمل السكون كل شىء ويكاد يسلبه
الحياة الا من قنبرة تفرد فى طبقات الجو العليا ، فتنساب انغامها
الفضية على الأرض المفتونة الوالهة ، وينبعث فى السهب من حين الى
حين صياح طائر النمرس او صفير السمان ، وتقف أشجار البلوط
الشامخة مسترخية خلية البال ، كأنها نفر من الضاربين فى الأرض
يهيمون بلا غاية ولا قصد ، وتلوح من أشعة الشمس بوارق تخطف
البصر فتضئ حشدا يهيجا من اوراق الشجر ، وتلقى على غيره من
الأوراق ظلا أسود كالليل يخالطه اذا هبت الريح وشى من ذهب ،
وتحوم هوام الجو كومضات الزمرد والياقوت أصفره وأحمره حول
حدائق المطابخ البهيجة التى يتسنمها عباد الشمس الهيب الجليل ،

وتصطف اكداس الدريس الشهب وحزم القمح الذهبية كالخيام فى السهل منتشرة فى أرجائه الفسيحة ، وتنوء الأوراق العريضة لشجر الكرز والبرقوق والتفاح والكمثرى بما تحمل من فاكهة ، وتنسبط السماء كالمرآة الصافية ويرفل النهر فى بساط سندسى مزهوا فخورا !
الا ما أمتع الصيف فى اوكرانيا وافتنه وأبعثه على الراحة والاسترخاء !

وقد تمثل هذا النعيم والبهاء كله فى يوم حار من ايام شهر أغسطس عام الف وثمانمائة .. الف وثمانمائة .. ، جل ، كان ذلك من نحو ثلاثين عاما حين كان الطريق فيما وراء قرية سوروتشنسكى بعشرة فيرستات يعج بالناس يهرولون الى السوق من المزارع ، قاصيها ودانيها ، وقد سارت العربات الممتلئة بالسّمك والملح منذ الصباح الباكر فى رتل لا ينتهى على طول الطريق ، وكانت جبال من القدور المحزومة بالقش تسير فى بطء وكلال كأنما أدركتها الملاثة والسام من حبسها فى الظلام ، وانما يلوح من بينها هنا وهناك « سلطانية » أو جرة باهرة الطلاء تطل مزهوة من خلف الحاجز المسك بذلك الكوم العالى المكّس فوق العربة ، مجتذبة انظار اولئك الذين تستهويهم هذه الكماليات . وراح كثير من المارة ينظرون بعين الحسد الى الفخرانى الطويل القامة صاحب هذه الكنوز ، وهو يسير فى بطء وتمهل خلف بضاعته ، يرد بين الفينة والفينة طرائفه من الفخار بعناية الى مواضعها من القش الذى سُمّته . وكان زوج من الثيران الكليّة يجر على جانب من الطريق بمعزل عن رتل العربات ، عربة تكدست فوقها اكوام عالية من الأكياس والقنب والكتان والادوات المنزلية على اختلافها يتبعها صاحبها وقد تسربل بقميص نظيف من الكتان وسروال قدر من الكتان أيضا ، وراح يمسح بيده فى تكاسل وبلادة وجهه الأسمر من اثر العرق الذى يتقاطر من شاربه الطويل الذى ذر عليه الضرور ذلك الحلاق الماتى الذى يحل بالمليح والقبيح على السواء من غير دعوة ، أجل ذلك الحلاق الذى ظل آلاف السنين يدر الضرور قهرا على الناس ولم ينج منه أحد من بنى الانسان . وسارت الى جانب الرجل فرس شدت الى العربة ، وقد نم انكسارها ووداعتها عما بلغته من سن عالية .

وكان كثير من المارة ، وبخاصة الفتيان ، يخلعون قبعاتهم وهم يمرون بفلاحنا ، ولم يحملهم على ذلك شاربه الأسيب أو خطوته الوقور ، بل شيء آخر كان لا يقتضى من المرء الا ان يرفع عينيه قليلا ليكشف عن سر هذا الاحترام ، ذلك ان ابنته الجميلة كانت تجلس فوق العربة ، فتاة ذات وجه مستدير ، وحاجبين اسودين تقوسا فى استواء فوق عينين صافيتين عسليتين ، وشفتين ورديتين ضاحكتين ، وقد التفت الشرائط الحمر والزرق فى ثنايا صفائرها الطويلة فتوجت هى وباقه من الأزهار البرية رأسها الفاتن ، وبدا للأنظار أن كل شيء يثير اهتمام الفتاة ، فقد كان كل شيء جديدا يثير العجب ، وكانت عيناها الجميلتان تتوثبان طوال الوقت متنقلتين من شيء الى شيء ، وأى عجب فى أن يثور اهتمامها ، وقد كانت هذه أول مرة تزور فيها سوقا من الأسواق ؟ وما بالك بفتاة فى الثامنة عشرة من عمرها تجد نفسها فى سوق لأول مرة ؟ ولم يك احد من المارة يدرى مقدار ما بذلته من جهد لاقتناع أبيها باصطحابها معه ، وقد كان الرجل مستعدا للاستجابة الى طلبها قبل ذلك لولا زوجة أبيها الحقوق التى تعلمت ان تسوس قيادة بالمهارة التى يقود هو بها فرسه العجوز الآن الى السوق لبيعها جزاء لها على ما قضت فى خدمته من سنين طويلة . الا تبا لتلك المرأة المزعجة ! ولكننا ننسى انها كانت هى أيضا تجلس على قمة الحمل وقد ارتدت سترة خضراء أنيقة من الصوف زينتها بذبول صغيرة تقلد بها فراء القاقم الثمين على الرغم من ان هذه الذبول كانت حمر اللون ، كما ارتدت نقبة رائعة ذات مربعات كأنها لوحة الشطرنج ، وقبعة ملونة مزينة بالأزهار اضعفت سمة بارزة من سمات الجلال على وجهها المستدير الأحمر الذى كان ينم عن طبيعة نكدة شرسة ترد كل متطلع الى الانصراف عنه سريعا الى وجه الفتاة الصبح المشرق .

وتراعى نهر بسيول لأعين مسافرينا ، بل هم قد احسوا على البعد منه بجوه الرطيب المنعش ، فهشت له نفوسهم بعد ان نالت منها الحرارة اللافحة كل مثال ، وبدت لمحات من الماء البارد تتألق من ثنايا الأوراق الداكنة والأوراق الخضر الزاهية لأشجار التامول والهور التى انتشرت فى أرجاء السهل بلا نظام ولا عناية ، وفتح النهار البديع

صدره الفضى المشرق وقد حنت عليه هدائل الأشجار الخضراء وافرّة
غزيرة ، وكان يغير مجراه كل عام تقريبا ويتخير مجرى جديدا ، ويحوط
نفسه بمناظر جديدة مختلفة الألوان والأشكال ، أجل كان يفعل ذلك
عن وعى وإدراك كأنه غادة فاتنة تبرز مرآتها الأمانة في هذه الساعات
الساحرة قوامها البديع وجبينها الوضاء الشامخ وكتفيها اللتين اكتستا
بلون الزنبق وعنقها المرمرى تغشاه أمواج من شعرها الأسود ، ثم
تطرح في ترفع وأنفه حلية من الحلى لتستبدل بها أخرى وقد
استرسلت في نزواتها استرسالا لا يعرف له آخر . وكانت صفوف
من طواحين الماء ترفعه في أمواج كبيرة بعجلاتها الثقيلة ، ثم تعود
فتقذف به الأرض في عنف وقوة ، وتمخضه مخضا يستحيل معه الى
زيد ينتشر محدثا هديرا عظيما .

وفي تلك اللحظة بلغت العربة الجسر هي والأشخاص الذين
وصفناهم ، وانبسط النهر امامهم بكل ما حباه الله من جمال وجلال
كأنه صفحة من زجاج ، وانعكست على أديمه السماء والغابة الخضراء
والزرقاء الداكنة والرجال وعربات القدور وطواحين الماء ، فبدت
جميعا منقلبة رأسا على عقب ، ولكنها لسبب من الأسباب لم تفص
في أعماق النهر الزرق الجميلة .

واستفرقت غادتنا الفاتنة في التأمل سارحة يبصرها في هذا المنظر
البديع ، وبلغ من استفراقها أنها نسيت أن تقضقض بزور عباد الشمس
التي كانت مشغولة بأكلها طول الطريق ، وطرق أذنها فجأة صوت
يقول : « يا لها من فتاة ! » ، فتلفتت فرأت جماعة من الشبان يقفون
على الجسر ، وقد تأنق واحد منهم في ملابسه أكثر من أصحابه ،
وارتدى سترة بيضاء وقبعة رمادية من فراء استراخان ، وراح ينظر
في مرح الى المارة واضعا يديه في خاصرتيه ، ولم يسع الفتاة إلا
أن تلاحظ وجهه الطلق الذى لفته الشمس ، وعينيه المتألفتين اللتين
كانتا فيما يلوح تحاولان جاهدتين أن تنفذا الى أعماقها ، وأرخت الفتاة
بصرها إذ طاف بذهنها أن هذا الشاب قد يكون هو الذى نطق بهذه
الكلمات .

ومضى الشاب ذو السترة البيضاء يقول وعيناه لا تتحولان عنها :
« يا لها من فتاة رائعة ! ، وانى لأبذل كل ما أملك فى سبيل قبلة
منها ! ولكن أنظروا الى تلك الحيزبون التى تجلس فى مقدمة العربة ! »
وانفجر الشبان ضاحكين جميعا ، ولكن زوجة الفلاح البطيء
الحركة التى كانت قد ارتدت من الملابس أكثر مما ينبغى ، لم تسرها
هذه التحية ، فاضطرم خذاها الوردبان بنار الغضب ، وانهاالت على
رأس الشاب بسيل من الشتائم المنتقاة .

« الا فليزهق الطاعون روحك ايها الراكبى الخبيث ! ولتنزلن برأس
ايك قدر فتخطمه ! ولتعثر قدمه على الجليد ، هذا الكافر للمعون !
وليحرق الشيطان لحيته فى جهنم ! » .

وقال الشاب وهو يحدق فيها النظر ، كانما اذهلته هذه السهام
الحادة من التحيات المفاجئة : « بالله انصتوا اليها ! وانظروا كيف
تطلق هذه الحيزبون لسانها بمثل هذه الكلمات ! انها لتبلغ من العمر
المائة ولا تنقص يوما ! » .

وردت العجوز الشمطاء عليه قائلة : « مائة ؟ ايها الوثنى ، اذهب
واغسل وجهك ايها الوغد الحقير ! اننى لم ار امك قط ، ولكننى أعلم
انها قدرة وان اباك قدر ، وعمتك قدرة ! مائة حقا ! ايها الخنزير
الأمخط ! » .

وكانت العربة تبتعد عن الجسر ، فقابت الكلمات الأخيرة عن الأسماع ،
الا أن الشاب لم يكن يريد فيما يظهر أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ،
فبادر من غير ترو الى التقاط حفنة من الطين ورعاها بها ، واصابت
الرمية أكثر مما كان يرجى لها ، وتناثر الطين فلطخ القبعة الملونة كلها ،

وازدادت قهقهة الأوغاد العربدين علوا وصخبا ، وغلى مرجل الغيظ
فى صدر الحيزبون البدينة ، بيد أن العربة كانت قد ابتعدت كثيرا
فصبت جام غضبها وتقمطتها على رأس كنتها البريئة وزوجها البطيء
الحركة . وكان الرجل قد ألف هذه الاعتداءات منذ وقت طويل ، فلزم
الصمت فى اصرار وعناد ، وأخذ ينصت ساكن الجأش الى شقشقة
لسان زوجته ، ولم ترعو المرأة بل مضى لسانها الذى لا يدركه التعب

فى الشقشقة حتى بلغت العربية بيت صديقهم وخلصهم القديم ، وهو قوزاقى يسمى تسيبوليا يقيم فى ضواحي القرية . وتلاقى الأصدقاء القدماء بعد فراق طويل ، ونسي مسافرونا هذا الحادث المؤسف الى حين فى غمرة حديثهم عن السوق ، وأخذوا الى الراحة بعد رحلتهم البعيدة .

رباه ! اى شىء لا تجده فى
تلك السوق ، ان فيها عجلات
وزجاجا للنوافذ ، وقطرانا وتبغا
واحزمة وبصلا ، وحوانيت
لبيع السلع الصغيرة على
اختلاف أنواعها .. وهيهات ان
تشتري ما فى السوق جميعا
وان امتلا جيبك بثلاثين روبلا
نقدا وعدا !
(من ملهاة اوكرانية)

أو قد سمعت شلالا يتدفق ماؤه فيصطخب الجو من حولك ويختلط
فيه الهدير وأصوات مضطربة غريبة مبهمة ؟ الا يتملكك فورا هذا
الشعور نفسه وانت تضرب فى لجة سوق من الأسواق التى تقوم فى
القرى حين يمتزج الناس جميعا فى كتلة واحدة أشبه بالوحش المخيف
الهائل يتحرك جسمه كله فى ساحة الشوق وفى الطريق الضيق ، يصيح
ويضحك ويضوضى ؟ ويختلط الصخب والسباب والخوار والثغاء
والضجيج والعجيج فى هدير واحد مهوش مضطرب ، فتري الثيران
والأكياس والدريس والنور والقذور والفلاحات والكمك والقبعات ،
أجل ترى كل شىء وقد بدا فى ألوان زاهية براقه متنافرة يندفع فى
هرج ومرج أمام ناظريك ، وتطفى بعض الأصوات المختلفة على بعض ،

فلا تستطيع أن تلتقط كلمة واحدة أو تظفر بها في خضم هذا الطوفان ، بل لا تستطيع أن تميز صيحة واحدة ، وتسمع الأيدي تتقارع في كل مكان متصافحة دليلا على ابرام صفقة من الصفقات ، وترزح عربة بما تنوء من حمل وتتحطم ، وتطرق اذنك أصوات قعقة الحديد وارتطام الألواح الخشبية تهوى الى الأرض ، فيتصدع رأسك من الدوار ، ولا تعرف أى طريق تسلك ! .

وكان صاحبنا الفلاح الذي عرفناه وشيكا قد أخذ منذ حين يشق طريقه وسط الزحام ومعه ابنته الكحيلة العين ، ومضى الرجل الى حمل عربة من العربات وتحسس بيده حملا آخر وسأل عن الأثمان ، وظلت افكاره تحوم حول عشرة الاكياس من القمح والفرس المجوز التي جاء بها الى السوق لبيعها ، وتجلى على وجه ابنته شيء من الضيق لاحتكاكها بعربات الدقيق والقمح . لقد كانت نفسها تتوق الى غشيان المكان الذي تعرض فيه الأشرطة الحمر وأقراط الصفيح والصلبان المصنوعة من النحاس والدنانير الذهبية عرضا جذابا تحت مظلات من السكتان ، على أنها كانت تجد في المكان الذي كانت تلم به اشياء كثيرة جديدة بالانتباه ، فقد سرها غاية السرور منظر نورية وفلاح فرع كل منهما يد صاحبه قرعا عنيفا بعد أن عقدا صفقة حتى صرخا من الألم ، ومنظر يهودى ثمل يلكز امرأة في ردفها ، ومنظر بائعتى سمك تتبادلان السباب وتتضاربان بسرطان الماء العذب ، ومنظر روسى يربت لحية تيسه بأحدى يديه ، أما اليد الأخرى... ولكنها شعرت في تلك اللحظة بشخص يجذبها من كم صدرتها المطرزة، فالتفتت فرأت الشاب المشرق العينين ذا السترة البيضاء يقف أمامها ، ففرغت وخفق قلبها كما لم يخفق من قبل قط لفرح استخفه أو حزن ألم به ، فقد أحسبت بشعور غريب لذيد ، لم تستطع أن تدرك كنهه .

وقال لها الشاب في صوت خفيض وهو يأخذ بيدها : « لا تراعى يا فاتنتى ! لا تراعى ! فلن أقول شيئا يصيبك منه ضرر ! » .

وحدث الفتاة نفسها قائلة : « لملك لا تفعل ، ولكن ثمة شيئا غريبا ، وقد يكون هذا الشيء هو ابليس اللعين ! واتى لأعلم ان هذا

الذى يلم بى بعيد عن الصواب ، ولكنى لا اجد فى نفسى القوة على سحب يدى » .

وتلفت الفلاح وهم بأن يقول شيئاً لابنته ، واذا به يسمع كلمة « القمح » تتردد ، فحملته هذه الكلمة ذات السحر على أن يلحق من فوره بتاجرى قمح كانا يتحدثان بصوت مرتفع ، وأصم أذنه عن سماع أى شىء آخر .

الا ترى اى فتى هو ؟
انه لفتى قل ان تجد له ضربا
في هذا العالم ، فهو يعب
الفودكا كاتها الجمّة !
«الانباذة لكوتلياريفسكى» (١) «

وسأل احد التاجرين ، وكان يبدو عليه انه من اهل الحضرة ، يرتدى
سروالا مصنوعا من قماش خشن من غزل البيوت وقد لطحه القطران :
« اذن فانت تظن ايها الجار اننا لن نبيع قمحنا بثمان مناسب » .
فقال صاحبه ، وكان رجلا علا جبهته ورم كبير ، يرتدى سترة
زرقاء تنائرت الرقع فيها : « انى لا اظن ، بل اقول قول الواثق ،
واتنى لعلى استعداد ان اضع جبل المشتقة حول رقبتى ، واتدلى
من تلك الشجرة كما تتدلى المقاتق (السجق) فى الكوخ قبل عيد
الميلاد اذا بعنا بوشلا واحدا » .

ورد الرجل الذى يرتدى ذلك السروال من غزل البيوت : « على
رسلك ايها الجار ، فما جاء احد بقمح سوانا » .
وقال والد غادتنا الحسناء بينه وبين نفسه ، ولم تك قد فاتته
كلمة واحدة من حديث التاجرين : « فلتقل ما شئت ، فانى ادخر
عشرة اكياس » .

(١) كوتلياريفسكى : شاعر اوكرانى معاصر لجوجول ، و « الانباذة » صورة مزلية
للحمة فرجيل .

وقال الرجل الذى يعلو جبينه ورم متطيرا : « ايه ، وانك لترى
أن الأمر لا يعدو ما أقول ، وهو أن الشيطنة اذا دخلت فى شيء فلن
تصيب منه أكثر مما تصيب من مسكوفى جائع » .

وقال الرجل الذى يرتدى السروال من غزل البيوت : « وماذا تعنى
بالشيطنة ؟ » .

وقال صاحب الجبين الوارم وهو ينظر اليه شزرا من طرف عينيه
الحزبنتين : « ألم تسمع ما يقوله الناس ؟ » .
« وما بالهم ؟ » .

« جميل منك أن تقول ما بالهم ! ولكن مساعد القاضى - لا قدر
له أن يمسح شفتيه مرة أخرى ابدا بعد أن يصيب من خمر النبلاء
المصنوعة من البرقوق ما يصيب - قد خصص للسوق بقعة مشؤمة
ينشق جنبالك قبل أن تتصرف فى حبة واحدة من القمح . او ترى تلك
الصومعة القديمة المهتمة التى تقوم هنالك فى سفح التل ؟ » (وما
أن بلغا فى الحديث هذا الحد حتى اقترب منهما الفلاح الفضولى
وأصبح كله آذانا مصفية) ، « أن جميع الالاعيب الشيطانية تجرى
فى هذه الصومعة ، وما من سوق قامت فى هذه البقعة الا حفت بها
المتاعب . وقد مر بها كاتب الناحية فى ساعة متأخرة من الليلة
الماضية ، فأطل عليه فجأة من غرفة الدار العليا خطم خنزير ، وقبع
الخنزير بصوت عال جهر ارتعدت له فرائصه ، وأغلب الظن اننا
سنعود لمشاهدة السترة الحمراء مرة أخرى » .
« أى سترة حمراء ؟ » .

ووقف شعر صاحبنا الفلاح الذى كان ينصت باهتمام الى حديث
الرجلين عندما سمع هذه الكلمات ، وتلفت فزعا ، فرأى ابنته هى
والشاب واقفين وقد طوق كل منهما خصر صاحبه بلذاعة ، وراحا

يتها مسان متعابئين بكلمات رقيقة عذبة غير عابئين بكل ما فى العالم من سترات ، وبدد هذا المنظر ما تملك الفلاح من رعب وأعاد الى نفسه الطمانينة والهدوء .

« ايه ايها الجار ! يبدو لى انك تعرف كيف تضم فتاة الى صدرك ! لقد قضيت ثلاثة ايام بعد زواجى من خفسكا المسكينة ، رحمة الله عليها ، قيل أن أتعلم كيف أضمها الى صدرى ، وكان الفضل فى ذلك لصديق كان شاهد عرسى ، وهو الذى لمح بذلك من طرف خفى » .

وادرک الشاب أن ابا فاننته لم يكن من ارباب البديهة الحاضرة ، فأخذ يدبر الامر لنيل الخطوة عنده .

« يلوح لى ايها الصديق العزيز انك لاتعرفنى ، اما انا فقد عرفتک فى الحال » .

« احقا ما تقول ؟ »

« اجل ، وان شئت ذكرت لك اسمك ولقبك وكل شىء يتصل بك ، وان اسمك هو سولوبى شيريفيك »

« اصبت : - سولوبى شيريفيك »

« انظر الى جيدا - الا تذكرنى ؟ »

« كلا ، لا اذكرك ، ولست أقصد بذلك ان أسىء اليك ، فقد رأيت فى حياتى وجوها كثيرة جدا على جميع الانواع والاشكال ، فكيف تريد منى أن اذكرها جميعا »

« يحز فى نفسى كثيرا انك لا تذكر اىن جولوبوبنكو »

« وى ! هل أبوك هو أوخرىم ؟ »

« ومن يكون سواه ؟ وان لم يكن هو فلعله يكون جدى المعجوز
الأصلع نفسه »

وعندئذ خلع الصديقان قبعتيهما ، وراح كل منهما يقبل الآخر ،
وصح عزم ابن جولوبونكو على أن ينفذ الى قلب صديقه الجديد
دون ان يضيع في ذلك وقتا .

« ان حقيقة الأمر ياسولوبى هي اننى تعلقت بابنتك كما تعلقت
هي بى حتى صح منا العزم على ان نقضى بقية أيامنا معا » .

وقال شيريفيك وهو يضحك ويلتفت الى ابنته : « مرحى
يا باراسكا ، ولعل الله قد وفقكما حقا ، انت وهو ، الى ان ترعيا
مرعى واحدا كما يقولون ! هلم هلم ، هل اتفقتما ؟ هات يا زوج
ابنتى الجديد ، وقدم لى كأسا نمقد بها الصفقة ! »

والفى الثلاثة انفسهم فى حانة السوق المشهورة ، وهى خباء
ليهودية زينته بحشد من الاواني والزجاجات والقناني من كل صنف
ونوع .

وقال شيريفيك وقد لعبت الخمر براسه قليلا ، اذ رأى زوج
ابنته المرتقب يملا ابريقا سعته ١٢٥ درهما ويجرعه دفعة واحدة
دون ان يطرف له جفن ، ثم يقذف به الى الأرض فيهشمه
تهشيما : « يالك من شاب حاذق فطن ! وانا احب فىك هذا !
ما قولك يا باراسكا ؟ الم اجد لك زوجا مليحا ؟ انظرى كيف يعب
الشراب عبا ! »

ومضى الرجل بصحبة الفتاة الى عربته وهو يضحك وبترنح ، اما
الشاب فقد شق طريقه الى المظلات التى عرضت فيها أدوات
الزينة ، وكان فيها تجار من جادياخ نفسها بل من ميرجورود .

وهما مدينتان مشهورتان من أعمال بلتاوة ، واختار أحسن غليون
من الخشب المحلى برباط اتيق من النحاس ، ومندبلا احمر منقوشا
بالزهر ، وقبعة ، ليقدمها في الزفاف هدايا الى حميه والى من هم
جديرون بهذه الهدايا .

إذا أراد الرجل شيئا
وأرادت زوجته شيئا آخر
فأنت تعلم أن تكون الغلبة!
« كوتليارفسكى »

« مرحى يا امرأتى ، لقد وجدت زوجا لابنتى »
« عجبيا لك ! هل هذا هو الوقت المناسب للبحث عن الأزواج؟
يا لك من أبله مأفون ! ولاشك أنه قد كتب عليك يوم ولادتك أن
تلازمك هذه الصفة ! والا فخبرنى هل فى الخلق من أحد رأى أو
سمع برجل وقور يتصيد الأزواج فى وقت كهذا ؟ لخير لك أن تفكر
فى وسيلة تتخلص بها من القمح الذى بين يديك ، ولاشك عندى
أيضا فى أنك قد عثرت على شاب مليح فصيح ! انى لا توقع أن
يكون هذا الشاب هو أحقر سائل فى هذه الناحية كلها ! »

« ايه ، ليس فيما تقولين ظل من الحقيقة ! ولشد ما أتمنى
أن ترى أى فتى هو ! أن سترته البيضاء وحدها لأغلى من
صدارتك الخضراء وحذائك الأحمر ، فكيف بك إذا رأيت به يعب
الفودكا عبا ؟ الا فليذهب بى الشيطان وليذهب بك أنت أيضا ، أن
كنت قد رأيت من قبل شابا مثله يجرع نصف لتر من الفودكا دون
أن تطرف له عين ! » .

« صدقت ، فانه ان كان سكيرا أفاقا كان على مشربك وهواك .
ولا ضرر من أن أراهن بأنه هو ذلك الوغد الذى أقلق منا الخواطر
على الجسر ، ولشد ما يحز فى نفسى اننى لم ألقه بعد حتى أردته
الى جادة العقل والصواب » .

« وماذا لو كان هو الشاب نفسه ياخيفريا ؟ وما بالك تقولين
انه وغد ؟ »

« اتسألنى لماذا أقول انه وغد ؟ هلا تستمعون الى هذا الرأس العجوز الفاسد ! أين كانت عيناك الخاملتان عندما كنا نسوق العربية مازرين بالطواحين ؟ رجل تهان زوجته تحت انفه الكريه ولا يحرك ساكنا ! »

« لست أرى فيه عيبا على كل حال ، فهو فتى ولا كل الفتيان ! وكل ما فعله انه لطح وجهك القبيح بالروث فحسب »

« واها لك ! فانى أرى انك لا تتركنى أقول كلمة واحدة ! ماذا دهالك ؟ لاشك انك قد اصبحت كاسا قبل أن تبسب شيئا ! »
وعندئذ أدرك شريفك انه قد انساق فى القول اكثر مما يجب ، فأسرع وغطى رأسه بيديه ، ولاشك انه توقع ان زوجته الغاضبة ستمسك شعره ببرائتها الزوجية !

وقال يحدث نفسه وهو يتراجع مشققا من ثورة زوجته الحانقة :
« يا للعنة ، ولبئس المصير الذى ينتهى اليه زواجنا ! او حق على ان أرفض فتى مليحا لغير ما عذر أو سبب ؟ رحماك يا الله ! لم رميتنا بهذا البلاء نحن المساكين الخاطئين ؟ وكيف اقتضت ارادتك ان تخلق لنا النساء على ما فى هذا العالم من شرور كثيرة جمّة؟ »

لا تلوى يا شجرة الدلب ،
فما زلت خضراء يانعة ،
ولا تلقى ايها القوزاقى اليافع ،
فما زلت شابا غص الأهاب .
« من أغنية اوكرانية »

جلس الشاب صاحب السترة البيضاء بجوار عربته يحملق شاردا
الفكر فى زحمة الناس الذين كانوا يوضون من حوله ، واخذت
الشمس الواهنة تنحسر عن الأرض بعد أن ظلت تسطع هادئة مطمئنة
البال طيلة ساعات الظهيرة ، وراح ضوء النهار يخبو فى وهج سنى
فتان ، وتلاوات قم المظلات والخيم البيض بريق يخطف الأبصار
يفشاه وشى وردى باهت ، وتألقت الواح الزجاج فى اطارات النوافذ
التي كدست للبيع ، وكانت الأقداح الخضر والقناني التي على موائد
مظلات الشراب تومض وميض النار ، وبدت تلال البطيخ واليقطين
كانها صبت من الذهب والنحاس الداكن ، وقل الكلام ، وثقلت
السنة الباعة المتجولين والفلاحين والنور من التعب والكلال ، وازدادت
حركتها كسلا وتراخيا ، وبدأت الأنوار تشعشع هنا وهناك ، وانطلق
البخار الطيب النكهة من لقيعات القاضى التي كانت تغلى ، وانساب
فوق الطرقات التي خيم عليها السكون .

وصاح رجل من النور طويل القامة لفحت الشمس وجهه وهو
يضرب صديقنا الشاب على كتفه : « ما الذى يحزنك يا جريبتسكو؟
هلم ، وبع لى ثيرانك بعشرين روبلا ! »

« ان حياتك كلها ثيران فى ثيران ، وانتم معشر النور لا تفكرون
الا فى الكسب ، تغشون الشرفاء وتخدعونهم ! »

« آه ، أرى ان مرارتك قد انشقت من الغضب ! ترى أضاق صدرك لانك ربطت نفسك بفتاة ؟ »

« كلا ، ليس هذا من خلقي ، فاني أحفظ عهدي ، وما أفعله التزمه دائما ، على ان ذلك الشيخ العجوز شريفك لا تنطوى جوانحه فيما يبدو لى على ما يساوى نصف كوبيك من الضمير ، فقد وعد ولكنه نكث الوعد ، ولا ضمير فى لومه فهو غبى أحمق وحسب ، وكل هذا من صنع تلك العجوز الشمطاء التى سخرت بها جماعتنا من الفتيان على الجسر اليوم ! ولو اننى كنت القيصر أو أى وجه من أشراف القوم لشنقت جميع أولئك الحمقى الذين يسلمون قيادهم للنساء . »

« هل تبيعنا الثيران بعشرين روبلا اذا نحن حملنا شريفك على ان يزوجك باراسكا ؟ »

وحماق جريبتسكو فيه متعجبا ، فقد كان يشوب وجه ذلك النورى الأسمر شيء يتم عن الحقد والخبث واللؤم ، وان كان فى الوقت نفسه ينطوى على الفطرسه والكبر ، وكان كل من ينظر اليه خليقا بأن يجد فى تلك النفس الغريبة خصالا وصفات عظيمة ، وان كان لا يستحق عليها من جزاء فى عرف الناس على ظهر هذه الأرض الا المشنقة ! وكان فم الرجل غارقا تماما بين أنفه وذقنه الحاد الطرف تلوه دائما ابتسامه ساخرة، وعينان صغيرتان تضطربان كالنار ، ويبرق محياه بومضات فى كل آن من الدس والوقيعه والاقدام ، وقد بدا ذلك كله متمشيا مع الزى الغريب الذى كان يرتديه ، فقد كانت سترته السمراء الداكنة التى يتراءى للناظرين انها خليقة بأن تستحيل ترابا اذا لمسها لأمس ، وشعره الأسود الطويل يسترسل على كتفيه فى جدائل معقدة ، وحذوؤه الذى ينتعله فى قدميه العاريتين اللتين لفحتهما الشمس ، أجل كان ذلك كله فيما يلوح جزءا لا يتجزأ منه .

وأجاب الشاب وهو لا يزال يحدق النظر فى النورى بنظرات مستشفة : « سأبيعها لك بخمسة عشر روبلا لا عشرين ، ولكن لا تخدعنى . »

« خمسة عشر ؟ اتفقنا ! واياك ان تنسى ، خمسة عشر ! هاك
خمسـة روبلات على الذمة ! »
« واذا خدعتنى ؟ »
« كان ما فى ذمتك لك »
« حسن ! هات يدك ابراما لهذه الصفقة ! »
« اتفقنا »

كان الله في عوننا ! فان زوجي
مقبل وليكون هنا بعد لحظة
وليضربنني ، اما أنت يا بان
خوما فلن تغفلت ببطلك منه أيضا !

« من ملهاة أوكرانية »

« من هنا يا افناسى ايفانوفيتش ! فان السياج اكثر انخفاضاً
في هذا الموضع . ارفع قدمك ولا تخف ، فقد مضى المعجوز الاحمق
صحبة خله يقضى ليلته نائماً تحت العربة حتى يطمئنا الى أن
المسكوفيين لن يسرقوا شيئاً »

وهكذا شجعت زوجة شيريفيك العاتية ابن القس الذى كان
يتعلق بالسياج في ضعف وخور ، فتسلق الى قمة السياج ، وبقي
في موضعه مترددا لحظة كأنه شبح نحيل مخيف يبحث عن خير
مكان يستطيع أن يقفز منه اليها . وهبط الفتى آخر الامر مرتطماً
بالأرض بين العشب الغزير ، فغمضت خيفريا في قلق واضطراب
قائلة : « يا الهى ! أرجو ألا تكون قد اصبت نفسك بضر ! حمدا
لله على انك لم تدق عنقك ! »

وهمس ابن القس في صوت ينم عن الالم وهو ينتصب على
قدميه: «صه، انى بخير ، انى بخير يا عزيزتى خافرونيا نيكي فوروفنا،
اللهم الا ما اصابنى من القريض ، ذلك العشب الذى يشبه الافعى،
على ما وصفه به قمصنا الراحل »

« هيا بنا ندخل الى المنزل فليس فيه من احد ، وكنت قد
بدات اظن انك اصبت بالأم في معدتك ، فقد غبت عنى طويلا
يا افناسى ايفانوفيتش ، كيف حالك ؟ لقد سمعت أن اباك المبجل
قد وفق في أعماله توفيقاً طيباً ! »

« لم يوفق توفيقا يستحق الذكر ياخافرونيانيكيفوروفنا ، فان ابي لم يتلق طوال ايام الصيام الا خمسة عشر كيسا او نحوها من دقيق الربيع ، واربعة اكياس من الدخن ، ومائة رغيف ، اما الدجاج فلم يبلغ عدده الخمسين ، وكان معظم البيض فاسدا . ثم اردف ابن القس يقول وهو ينظر اليها نظرة حب وحنان ويقترب منها : « انما العطايا الحلوة حقا لا تأتي الا منك ياخافرونيانيكيفوروفنا ! »

فقالت وهي تضع بعض الأقداح على المائدة ، وتثبت أزرار قميصها في دلال كأنها لم تفكها عمدا : « هالك عطية يا افناسي ايفانوفتش ! فطائر باللبن المخثر ، ولقيمات قاض مصنوعة من القمح ، وقطائف وكعكا ! »

وقال ابن القس وقد راح يأتي على الكعك ويسحب اليه الفطائر باليد الأخرى : « اراهن انها من صنع امهر يد خلقها الله من ايدي بنات حواء ، ولو ان قلبي يتوق حقا الى عطية منك أحلى من القطائف ولقيمات القاضى ! »

وقالت الحسنة الريلة وهي تتظاهر بأنها لم تفهم مايرمى اليه : « لا ادرى حقا اى اطايب أخرى تريد يا افناسي ايفانوفتش ! » وهمس ابن القس ، وهو يمسك فطيرة باحدى يديه ، ويطوق خصرها المليء بذراعه الطليق : « حبك طبعاً ! أى خافرونيانيكيفوروفنا يازينة النساء ! »

وقالت خيفريا وهي ترخى بصرها الى الأرض حياء وخجلا : « لا ادرى والله ماذا تعنى يا افناسي ايفانوفتش ! ولست أعجب ان حاولت بعد أن تقبلنى ! »

واسترسل الشاب يقول : « اما ذلك فلا اكتمك اننى عندما كنت فى الجامعة ، وانى لأذكر هذا الحادث كأنه وقع اليوم »

وفى تلك اللحظة طرق آذانهما صوت نباح وقرع على الباب فهرعت خيفريا الى الخارج مسرعة وعادت وقد شحبت وجهها : « لقد افتضح امرنا يا افناسي ايفانوفتش ، فثمة قوم كثيرون يقرعون الباب ، ويخيل الى اننى سمعت صوت تسيبوليا »

وغص حلق الشاب بالفطيرة ، وجحظت عيناه حتى أوشكتا ان

تخرجنا من راسه كأنما حل به وشيكا شخص جاء من العالم الآخر .
وقالت خيفريا وقد تملكها الفزع : « تسلق الى ذلك المكان ! »
وأشارت في الوقت نفسه الى بعض الألواح الخشبية المثبتة في
عرض الروافد تحت السقف تماما ، وقد حملت من سقط المتاع
اشكالا وألوانا .

واستثار الخطر شجاعة صاحبنا ، فارتقى الموقد ، وتسلق منه
في حذر الى الألواح الخشبية ، في حين هرعت خيفريا مسرعة الى
الباب ، وكان الطرق يشتد ويزداد الحاحا .

ولكن هنا تحدث الاعاجيب يامولاي !
« من ملهاة اوكرانية »

وكان قد وقع في السوق حادث غريب ، اذ انتشرت في جميع ارجائها شائعات بأن السترة الحمراء شوهدت في مكان ما بين السلع، فقد خيل الى خبازة انها شاهدت الشيطان في صورة خنزير ينحني على العربات كأنه يبحث عن شيء . وسرعان ما طار النبا الى كل ركن من اركان المخيم الذي شمله السكون الآن ، وظن الجميع ان تكذيب هذا النبا جريمة من الجرائم بالرغم من ان المرآة المعجوز التي كان محلها يجاور خيمة الشراب كانت تصيب من خمر جارتها ما تصيب حتى عجزت عن السير في خطوات مستقيمة متزنة . واضيف الى ذلك رواية أخرى عن تلك العجيبة التي شاهدها كاتب الناحية في الصومعة المتهدمة واتصل نبؤها الى الاسماع الآن بعد ان بالغ الناس فيها مبالغة عظيمة ، وما ان بدا الليل يرخي سدوله حتى اخذ القوم يتكاثرون ، وقد فارقتهم هدوء الببال والطمأنينة واستعصى عليهم جميعا ان يغمضوا عيونهم فزعا ورعبا ، اما ضعفاء القلوب منهم الذين كانوا قد التمسوا لانفسهم مضجعا في كوخ يأويهم سحابة الليل فقد خرجوا عائدين الى ديارهم ومن بينهم شريفيك هو وابنته وصديقه تسيبوليا ، وكان هؤلاء واصدقائهم الذين تطوعوا لمرافقتهم هم الذين قرعوا الباب بتلك الشدة التي القت

الرعب في قلب خيفريا ، وكان تسيبوليا قد نالت منه الخمر قليلا ، فقد ساق عربته حول الكوخ مرتين قبل ان يتمكن من العثور عليه ، وكان ضيوفه ايضا قد جنحوا الى اللهو والمرح ، فشقوا طريقهم في غير ما كلفة الى الكوخ ، ودخلوه قبل مضيفهم ، وجلست زوجة شريفيك على أحر من الجمر عندما بدءوا ينقبون في كل ركن من أركان الكوخ .

وسألت تسيبوليا وهو يدخل الكوخ : « مابالك ؟ اتنتفضين من الحمى ؟ »
وأجابت خيفريا وهي تخالس النظر قلقة الى ما فوقها : « نعم ، فاني مريضة »

فقال تسيبوليا : « هلمى يازوجتى ، واثينا بالقنينة من العربية ، فسناى عليها مع هؤلاء القوم الصالحين ، وليتست النسوة أولئك اللائى اوقعن في قلوبنا من الرعب ما يخجل المرء من أن يعترف به ، واسترسل في القول وهو يكرع جرعة من ابريق الفخار : « أجل ايها الرفاق ؟ فلم يك نمة ضرورة حقا تلجئنا الى الحضور الى هنا! وانى لأراهنكم على قبعة جديدة بأن النساء ظنن انهن مستطيمات ان يسخرن منا فهبوا انه كان هو الشيطان نفسه فمن يكون الشيطان؟ ابصقوا عليه ! ولو قد وقف امامى في هذه اللحظة لسخرت منه ، ولعنة الله على أن لم افعل ! » .

وصاح أحد الحاضرين : « وما بال وجهك قد علاه كل هذا الشحوب ؟ » وكان هذا الضيف أطول من القوم جميعا برأس ، لا ينفك عن الظهور بمظهر الرجل الباسل .
« انا ؟ لاشك أنك كنت تحلم ! »

وضحك الضيوف ، وابتسم البطل المزهو بنفسه ابتسامة السرور والرضا .

وقال آخر : « كانى به يستطيع الآن ان يصفر ويشحب لونه !
ان خديه فى مثل حمرة الخشخاش ، وليس هو تسيبوليا (١) الآن ،
بل هو بنجرة ، أو قل السترة الحمراء التى افزعت القوم ذلك
الفرع الشديد »

ودارت القينة على الضيوف المجتمعين حول المائدة ، فارتفعت
روحهم المعنوية ، وكان شريفيك لايزال يساوره القلق من السترة
الحمراء التى أبت ان تريح نفسه المستطلعة فهتف يقول لصديقه :
« حدثنى بالله يا صديقى ! فقد دأبت على استصلاح أمر هذه
السترة اللعينة فلم يجيبنى احد اجابة صريحة » .

« ليست هذه السترة بالأمر الذى يصح الكلام فيه والليل يوشك
ان يرخى سدوله ، على أنتى سأحدثك بأمرها ارضاء لك ولهؤلاء
الأصدقاء الأعزاء الذين يتوقون مثلك الى معرفة هذه العجائب سواء
بسواء ، فانصت الى ! »

وعندئذ حك تسيبوليا كتفيه وجفف وجهه بطرف قميصه واتكا
بذراعيه على المائدة وانشأ يقول :

« يحكى ان شيطاناً طرد من الجحيم ، ولايدرى السبب فى طرده
الا الله » .

وقاطعه شريفيك قائلاً : « ولكن كيف ؟ اجل كيف حدث ان شيطاناً
طرد من الجحيم ؟ »

« لست أدرى يا صديقى ، ولكنه طرد من الجحيم حقاً كما يطرد
الانسان كلباً من بيته ، ولعله فكر فى أن يأتى عملاً صالحاً فدلوه
على طريق الباب ، وتملك الشيطان المسكين حنين شديد الى

(١) تسيبوليا فى الاوكرانية معناها « البصل »

دياره ، واضناه الشوق الى الجحيم ، حتى هان عليه أن يشنق نفسه ، على انه لم يجد في الأمر حيلة ، فأخذ يروح عن نفسه بشرب الخمر ، واستقر به المقام في تلك الصومعة المتهدمة التي رايتموها في سفح التل ، وهو مكان لا يمر به رجل صالح اليوم الا رسم علامة الصليب ، واصبح هذا الشيطان فاسقا خليعا حتى بز في خلاسته الشبان جميعا ، وراح ينفق جميع يومه في الخمارة . وما أن بلغ الرجل في حديثه هذا الموضوع حتى قاطعه شيريفيك الصارم مرة أخرى :

« ما هذا الذي تقول ؟ كيف يسمح انسان لشيطان بأن يدخل الخمارة ؟ اللهم انزل علينا جميعا بركتك ! .. اليست له مخالف وقرون ؟ »

« آه ! صدقت كل الصدق - ولكنه كان يرتدى قبعة وقفازا ، فمن ذا الذي كان يستطيع أن يعرفه ؟ وادمم الشيطان الشراب حتى شرب بكل ما كان معه من نقود ، فأقرضوه كثيرا ، ولكنهم أمسكوا يدهم عنه آخر الامر ، فاضطر الى رهن سترته الحمراء بأقل من ثلث قيمتها عند اليهودى الذى كان يبيع الفودكا في تلك الايام في سوق سوروتشتسى . أجل رهنها وقال لليهودى : «تذكر أيها اليهودى اننى سأعود فى طلب سترتى فى خلال سنة ، فأحرص عليها ! » ثم اختفى ولم يعد يراه احد . وكان نسيج السترة افضل من اى نسيج تستطيع الحصول عليه حتى من ميرجورود نفسها ، كما كان لونه الأحمر يتوهج يتوهج النار بحيث يعز عليك أن ترد بصرك عنه. ولاح لليهودى ان السنة التى استمهله الشيطان اياها حقبة طويلة لا يستطيع ان ينتظر حتى تنتهى ، فحك رأسه واستقر رأيه آخر الأمر على بيعها وباعها بخمسين روبلا او نحوها لسيد كان مارا به »

« ونسى اليهودى كل ما يتعلق بالأجل المضروب، إلا أن رجلا جاء ذات مساء وقال له : « هلم أيها اليهودى ، وأعطني سترتي! » ولم يعرفه اليهودى أول الأمر، فلما أمعن النظر فيه تظاهر بأنه لم يره من قبل ، وقال له : « أى سترة ؟ ليست عندي سترة ، ولا أعرف من أمر سترتك شيئا ! » وانصرف الرجل الآخر، وما أن أوشك الليل أن يرخى سدوله حتى أغلق اليهودى باب غرفته من دونه ، وأخذ في عد النقود التي احتفظ بها في صناديقه ، وألقى على كتفيه قطعة من النسيج ، وأخذ يتلو صلاته على سنة اليهود، وإذا به يسمع فجأة حفيفا فرفع رأسه ، ورأى الخنازير تدس أنوفها في النوافذ جميعا ! » .

وفي تلك اللحظة نفسها طرق آذانهم صوت غامض لا يختلف عن قباع الخنازير ، فاصفرت وجوه القوم جميعا ، وتجلت قطرات من العرق على وجه تسيبوليا .

وصاح شيريفيك وقد تملكه الرعب : « ما هذا ؟ »

فأجاب تسيبوليا مرتعد الأوصال فرقا : « لا شيء »

وقال واحد من الضيوف : « ماذا ؟ »

« هل قلت شيئا ؟ »

« كلا ! »

« من الذى قبع ؟ »

« الله يعلم ما الذى دهانا ! فليس هنا من أحد سوانا »

وأخذوا يتلفتون حولهم فزعين مروعين ، وبدءوا ينقبون في أركان الغرفة ، وكانت خيفريا أقرب إلى الأموات منها إلى الأحياء .

وقالت بصوت مرتفع : « لستم إلا جماعة من النساء لا أكثر

ولا اقل ! اتسمون انفسكم قوزاقا ؟ وى ! ما احراكم ان تقبوا
في اماكنكم تندفون الصوف وتفزلونه ! لعل احدكم .. او ربما
سرت اريكة رجل منكم فلم يلبث الاضطراب ان شاع بينكم حتى
لكانكم طائفة من المجانين ! »

واخجل كلام خيفريا القوم ، وحملهم على ان يستجمعوا شتات
انفسهم ، وجرع تسيبوليا جرعة من الايريق واسترسل في رواية
قصته قائلا :

« واغشى على اليهودى خوفا ورعبا ، ولكن الخنازير تسلقت
الكرخ بقوائمها التى تبلغ فى طولها مبلغ قوائم ابي ساق ، ودخلت
من النوافذ واعادته الى وعيه فى لمح البصر بسيور مجدولة من الجلد
جعلته يقفز قفزات اعلى من هذه الروافد ، ووقع اليهودى على
اقدام الخنازير ، واعترف لها بكل شيء ، الا انه لم يك فى الامكان
رد السترة بسرعة ، فقد سرقها من السيد فى الطريق نورى باع
امراة اياها ، واعادتها المراه الى سوق سوروتشتسى ، على ان
الناس احجموا من بعد عن شراء اى شيء منها ، وعجبت المراه
ذلك ، واستبد بها العجب ، ثم ادركت آخر الامر سر انصراف
الناس عنها ، ولاشك ان السترة الحمراء كانت هى السبب فى بوار
تجارها ، ولم يكن بمجيب اذن ان تشعر المراه بالاختناق كلما
ارتدت هذه السترة ، فبادرت الى القاها فى النار بلا تفكير ولا روية،
بيد ان السترة الشيطانية ابت ان تحترق ! وقالت المراه تحدث
نفسها : « انها لعطية من الشيطان ! » ، وافلحت فى دسها فى عربة
فلاح كان قد جاء الى السوق يبيع زبده ، وتملك السرور ذلك الفلاح
الغبى ، واحجم الناس جميعا عن طلب شيء من زبده ، وقال الرجل
بينه وبين نفسه : « لا شك ان يدا شريرة قد دست هذه السترة
على ! » وتناول فاسه وقطعها اربا اربا ، ثم نظر اليها ، فاذا بكل

قطعة منها تنضم الى الأخرى حتى استوت جميعا ، وعادت السترة سليمة كما كانت ! فرسم علامة الصليب ، وانهاى عليها بالفأس مرة أخرى ، ونثر القطع فى أرجاء المكان كله ثم رحل . وراح الشيطان منذ ذلك الحين يجوب انحاء السوق كلما انعقدت متخذا صورة خنزير يقبع ويجمع قطع سترته . ويقول الناس الآن : « انه لم يعد ينقص السترة سوى الكم الأيسر ، وأصبحوا من يومها يجتنبون هذا المكان ، وانقضت عشر سنوات منذ أقيمت السوق فيه ، الا أن مساعد القاضى فى ساعة نحس .. »

وجمدت بقية العبارة على شفتى المتحدث ، فقد انبعث من النافذة قعقة عالية وسقطت الألواح الزجاجية ترن على الأرض ، واطل من النافذة وجه خنزير بشع الخلقه وراح يحملق وهو يدير عينيه كأنه يتساءل : « ماذا تفعلون هنا ايها القوم الصالحون ؟ » .

كان ذيله بين ساقيه كأنه
الكلب ، وقد سرت الرعدة في
جميع أوصاله كأنه قايين
وتقاطر الدم من أنفه .

(من «الإنياذة» لكوتلياريفسكى)

وأخرس الرعب لسان كل من كان في الغرفة ، وجلس تسيبوليا
جامدا كالصخر وقد ففر فاه وجحظت عيناه حتى كادت تنطلقان
من محجريهما كأنهما رصاصتان ، وتوقفت أصابعه الممدودة في الهواء
وكفت عن الحركة ، وقفز العملاق الرابض الجأش قفزة عالية وقد
امتلات جوانحه خوفا ورعبا ، فارتطم رأسه والرافدة ، وتزحزحت
الألواح وسقط ابن القس مرتطما بالأرض ارتطاما سمع له هبدة
وصوت شيء يتحطم .

وصاح واحد من القوم في صوت اليائس ، وقد اعتلى أريكة من
الأرائك فزعا مرتاعا ، وراحت ذراعه وساقاه تضطرب وتضطرب
« آه ، آه ، آه » .

وصاح آخر وهو يخفى رأسه تحت فروة من فراء الأغنام :
« النجدة ! » .

وايقظ الرعب الذي حل بهذا الرجل الآخر تسيبوليا من سباته ،
فزحف مرتجف الأوصال يلوذ بنقبة زوجته مختفيا تحتها ، وتسلق
العملاق الرابض الجأش الى الموقد على الرغم من ضيق فتحته ، وأغلق
بابه من دونه ، ووضع شيريفيك قدرا على رأسه بدلا من القبعة ،
وأندفع صوب الباب كالقط إذا لسعه الماء الساخن ، وأخذ يركض
في الشوارع كمن به جنة ، ولم يحمله على التمهل في سيره الا التعب
والكلال ، وكان قلبه يضرب كأنه معصرة من معاصر الزيت ، وتصيب

العرق منه كالأنهار ، وأوشك أن يقع على الأرض من فرط ما ناله من
اعياء ، وإذا به يسمع فجأة شخصاً يركض خلفه ، فضاقت أنفاسه .
وصاح وقد فقد صوابه من الرعب وأخذ يضاعف جهده :
« الشيطان ! الشيطان ! » ثم سقط بعد لحظة على الأرض مغشياً عليه .
وانبعثت صيحة من خلفه : « الشيطان ! الشيطان ! » ، ولم يشعر
الابشء يقع فوقه محدثاً صوتاً كصوت الارتطام ، وفقد وعيه وأنبطح
في عرض الطريق فاقد الحس لا حراك به كجثة مسجاة في نعشها
الضيق .

كان من الامام انسانا عاديا
كسائر البشر ، أما من الخلف
فكان - علم الله - كالشيطان !
(من قصة شعبية)

وجلس فجأة واحد من الجمع الذين التمسوا المبيت في العراء وقال:
« هل سمعت هذا يا فلاس ؟ لقد كان واحد من الناس يتحدث
هنا عن الشيطان ! » .

ودمدم رجل من النور بقربه وهو يتمطى : « واى شأن لى فى هذا
فليتحدثوا عن كل ما فى الجحيم من الشياطين ، فان ذلك لا يهمنى ! »
« ولكنه كان يصرخ مستغيثا كأنه يشنق ! » .

« ان المرء ليصبح هاتفا باى شىء فى نومه » .

« ربما ، ولكن يجب ان تلقى نظرة على الأقل ، اضئ لنا نورا ! » .

وانتصب النورى الآخر على قدميه وهو يدمدم بينه وبين نفسه ،
وأشعل سيلا من الشرر استطار كومضات البرق ونفخ فى الصوفان ،
ثم حمل فى يده « الكاجانتس » وهو المصباح الأوكرانى المألوف الذى
يتألف من جرة مكسورة ممتلئة بدهن الضأن ، وسار يضىء الطريق
أمامه .

« قف ! ان ثمة من يرقد هنا ! سدّد الضوء نحو هذا الموضع ! » .

ولحق بهما بعض رفاقهما .

« ما الذى وجدت يا فلاس ؟ » .

« يبدو لى انهما رجلان احدهما فوق الاخر ، ولا استطيع ان اتبين :
من منهما الشيطان ؟ » .

« عجبا ، هو ذلك الذى يعلو الاخر ؟ » .
« انه امرأة ! » .

« اذن فهالك الجواب ، انها هى الشيطان ! » .

وانفجر الجمع ضاحكين حتى اوشكوا أن يوقظوا الشارع كله .

وقال واحد من النظارة : « امرأة تركب رجلا ! لعمري انها تعلم
كيف تركبه ! » .

قال آخر وهو يلتقط قطعة مكسورة من القدر التى كان نصفها فقط
لا يزال يعلو رأس شريفك : « انظروا ايها الرفاق ! ما ابداع القبة
يرتديها هذا الفتى الظريف ! » .

وعلت ضوضاء الجماعة وضحكاتهم فدبت الحياة فى جتى
صاحبينا ، وأخذ شريفك وزوجته اللذان كانا ممتلئين بالرعب مما
حل بهما ، يحملقان فى فزع فى وجوه النور السمر التى بدت لهما فى
الضوء الخافت المتراقص كوجوه عشيرة همجية من الأقزام سبحت
فى دخان الجحيم الكثيف وغشيها ليل دامس لا ينجاب له ظلام .

الاسحقا لك يا شبح الشيطان ،
واغرب عنا بوجهك !
(من ملهاة اوكرانية)

وتنفس نسيم الصباح العليل فشمّل أهل سوروتشنتسى الذين كانوا ينفضون سلطان الكرى عن عيونهم ، وتصاعدت سحب الدخان من جميع المداخن لتلقى الشمس الطالعة ، وبدأت السوق تجيش بديب الحياة ، وأخذت الأغنام تشغو والجياد تصهل ، وعلا تقيق الأوز وصوت نساء السوق فشملاً أرجاء المخيم كله مرة أخرى ، واختفت بانبلج الصبح تلك القصص المرعبة عن السترة الحمراء التي أثارَت الفزع في ساعات الليل الحافلة بالغموض والأسرار .

وكان شيريفيك يتمطى ويتشاءب مغالبا النوم في صومعة صديقه تسيبوليا المسقوفة بين الثيران وأكياس الدقيق والقمح ، والظاهر أنه لم يكن يود أن يفارق أحلامه ، إلا أن صوتا قطع عليه حبل خيالاته ، صوتا ألفه لموقده ، ذلك الملجأ الأمين الذى كان يقضى فوقه ساعات الكسل والاسترخاء ، أو ألفه الحانة التى يملكها ابن عمه ، ولا تبعد عن داره الا عشر خطوات أو نحوها .

وصرخت زوجه الحنون فى أذنه جاذبة ذراعه بكل ما أوتيت من قوة : « انهض ! انهض » .

ولم يجيها شيريفيك ، بل نفع أوداجه ، وأخذ يلوح بذراعيه كأنه يفرع طبلا .

وصاحت المرأة متحاشية ذراعيه اللتين أوشكتنا أن تضربا وجهها :
« ايها الأبله المخبول ! » .

واستوى شيريفيك جالسا ، وفرك عينيه وتلفت حوله .

« فليأخذنى الشيطان يا عزيزتى ان لم اك قد تخيلت وجهك طبلا ،
ولم اجد بدا من أن أقرعه ، كما يفعل الجندى المسكوفى بليل ، أجل
أقرعه بوجوه تلك الخنازير التى كان تسيبوليا يحدثنا بأمرها » .

« كفاك هراء ! هلم وخذ الفرس الى السوق ! فما نحن الا قوم
هازلون ، لقد جئنا الى السوق ولم نبع حفنة من القنب » .

فأمن شيريفيك على كلامها بقوله : « هذا صحيح ، وسيضحكون منا
الآن بلا شك » .

« اسرع ! اسرع ! انهم يضحكون منك الآن فعلا ! » .

واسترسل شيريفيك يقول وهو يتشاءب ويحك ظهره محاولا كسب
الوقت : « ولكنى لم أغتسل بعد » .

« ما انسبه من وقت تشغل فيه بالنظافة ! متى كنت تهتم بأمرها ؟
هاك منشفة ، امسح بها وجهك الدميم » .

واختطفت شيئا كان ملقى منفوشا بجوارها ، ثم ألقت به فى
ذعر ، وكان هذا الشيء هو ردن السترة الحمراء !

ورأت زوجها وقد شل الفرع حركته وأخذت اسنانه تصطك ،
فاستعادت رباطة جأشها ، وعادت تكرر عليه القول : « اسرع وامض
الى عملك » .

وغمغم بينه وبين نفسه وهو يحل زمام فرسه ويقودها الى السوق :

« يا للتوفيق الذى ستلاقيه فى البيع الآن ! لا عجب اننى احسست وانا اتهايا لهذه السوق الملعونة بهم ثقيل يجثم على قلبى كأنما انقض احدهم ظهري ببقرة نافقة ، وقد حاولت الشيران مرتين ان تعود ادراجها الى المنزل ، اما وقد بدأت الآن افكر فى الامر فانى لاذكر اننا شرعنا فى رحلتنا يوم اثنين ، فساءت احوالنا جميعا ! واستبد القلق بهذا الشيطان الملعون ! وربما ذهب بك الظن الى انه قد يرتدى سترته بعد ان غاب احد كميها ، ولكن كلا ، فانه لا يستطيع ان يترك اهل الاستقامة يسرون فى طريقهم ! ولو كنت انا الشيطان - لا قدر الله - فهل تظنين اننى كنت اسعى - ليلا باحثا عن متاع من الخرق الملعونة ؟ » .
وفى هذه اللحظة انبعث صوت اجش قطع تأملات شيريفيك ، وانتصب واقفا امامه نورى طويل القامة .

« ما الذى تعرضه للبيع ايها الرجل الصالح ؟ » .

ولزم شيريفيك الصمت لحظة ، ثم نظر الى النورى من قمة رأسه الى اخمص قدميه وقال فى صوت هادىء لا اضطراب فيه ، ولم يتعلم او يترك العنان .

« تستطيع ان ترى بعينيك ما أبيع » .

فقال انورى وهو ينظر الى العنان الذى كان شيريفيك ممسكا به السرج .

« أجل السرج ، اذا كانت الفرس تشبه السرج ! » .

« انى لأحسب انك علفتها قشا ايها الجار ! » .

« قشا ؟ » .

وعندئذ هم شيريفيك أن يجذب العنان ليقود فرسه الى الامام مظهرا لهذا المفترى العياب الصفيق الوجه مبلغ كذبه ، الا أن يده

تحركت في سهولة عجيبة ولطمت ذقنه هو ، وألقى شيريفيك ببصره
فوجد في يده عنانا مقطوعا كان قد ربط بعنان الفرس ، يا للهول ! لقد
وقف شعر رأسه ، اذ رأى قطعة من كم احمر ! فبصق ثم رسم علامة
الصليب ، وهرب من هذه العطية غير المنتظرة ، وجرى بأسرع مما
يجرى رجل في نصف عمره ، ثم اختفى وسط الزحام .

ضربوني من اجل ما فى يدي
من قمح يخصنى .
(مثل)

وصاح بعض الفلمسان فى الدرب الذى ينتهى به الشارع :
« امسكوه ! امسكوه ! » ، واحس شريفك بايد قوية تمسك
به فجأة .

« قيدوه ! فانه الرجل الذى سرق فرس رجل امين » .

« خبرونى بارك الله فيكم ! لم تقيدونى ! » .

« انظروا كيف يسأل عن السبب ! ما الذى حملك على ان تسرق
فرسا من شريفك الفلاح ؟ » .

« لقد فقدتم عقولكم ايها الفلمان ! فهل سمح احد قط برجل
يسرق نفسه ؟ »

« هذه حيلة قديمة ! حيلة قديمة ! والا فماذا دهاك حتى كنت
تركض باقصى سرعتك كأن الشيطان نفسه كان فى أعقابك ؟ » .

« ان أى انسان ليركض اذا كانت سترة الشيطان . . . » .

« هذه الخدعة لا تنطلى علينا ايها الرجل الساذج ! روبدك ، ولتناان
جزءك من مساعد القاضى ، وليعلمنك الا تسير ملقيا الرعب فى قلوب
الناس بحكايات ترويها عن الشيطان ! » .

وانبعثت صيحة من الطرف الاخر من الشارع : « امسكوه !
امسكوه ! فهذا هو ! هو بعينه ! » .

ورأى شريفك صديقه تسيبوليا فى أشد حالات الفزع والرعب
وقد ربطت يدها خلف ظهره وراح بعض الفلمان يقودونه .

وقال واحد منهم : « ان ثمة أمورا غريبة تحدث هنا ! ولتسمعن الى مايقول هذا النصاب ! وحسبكم ان تنظروا الى وجهه حتى تبينوا أنه لص ! وقد سأله : لم أطلق لساقيه العنان كالمجانين ؟ فقال : انه دس يده في جيبه ليخرج صندوق سعوطه فاذا بها تجذب بدلا منه قطعة من سترة الشيطان لم تلبث ان استحالت الى شعلة حمراء ، فولى الأدبار ! » .

« وى ! ان الطيور على اشكالها تقع ! وخير لنا ان نقيدهما معا ! » .

قال صاحبنا الشقى المسكين :
« ما ذنبى اليكم ايها القسوم
الصالحون؟ وما بالكم تعذبوننى؟ »
وماذا فعلت حتى تسيئوا الى؟
ثم هتف وقد انخرط فى البكاء
وانهمرت الدموع السخينة من
عينيه ، وامسك بخاصرتيه :
« لماذا ؟ لماذا ؟ » .

(ارتيموفسكى - جولاك)
« السعيد والكلب »)

وسأل شريفيك صاحبه تسيبوليا وهو يرقد مقيدا بجواره فى
كوخ مسقوف : « لعل يدك امتدت حقا الى شىء يا صديقى ؟ » .
« أو منك أيضا أسمع هذا ايها الصديق ؟ الا شلت ذراعى وساقى
ان كنت قد سرقت شيئا فى حياتى ، اللهم الا كعيكات بالقشدة
مسكرة كنت اسرقها من أمى ، وانما كان ذلك قبل أن ابلغ العاشرة » .
« لم حل بنا هذا البلاء ايها الصديق ؟ ولكن مصيبتك أهون من
مصيبتى ، فانك لم تتهم الا بسرقة غرك ، ولكن ماذا فعلت أنا الشقى
التعس حتى استحق هذه التهمة النكراء وأرمى بسرقة فرسى من
نفسى ؟ يخيل الى يا صاح أنه قد كتب علينا يوم ولادتنا أن يجافينا
التوفيق ! » .

« ويل لنا نحن البائسين المنبوذين ! » .

ثم انفجر الصديقان ينتحبان :

قال جريبتسكو وهو يدخل الكوخ : « ماذا دهاك ياسولوبى ؟ ومن قيدك هكذا ؟ » .

وصاح شيريفيك وقد تهللت أساريره : « آه ، جولوبوينكو ! هذا هو الشاب الذى كنت أحدثك عنه يا صديقى ، ألا فلينفذ فى الله قضاءه فى التو واللحظة ان لم يك قد جرع من الخمر ابريقا كاملا فى مثل حجم رأسك تقريبا دون أن تهتز له شعرة ! » .

« فما الذى حملك اذن على الحط من قدر شاب مليح كهذا ؟ » .

واسترسل شيريفيك يقول مخاطبا جريبتسكو : « يخيل الى ان الله جازانى على ما اسلفت فى حقك من اساءة ، فاصفح عنى ايها الشاب الكريم ، واقسم لك انه ليسعدنى ان اسدى اليك اى معروف ، ولكن ماذا كنت تنتظر منى ان افعل ؟ ان الشيطان قد ركب امرأتى العجوز ! » .
« لست ممن يذكررون الاساءة ياسولوبى ، فان شئت اطلقت سراحك ! » .

ثم غمز بعينه للفتيان الآخرين ، فهب اولئك الذين كانوا يحرسونهما انى فك وثاقهما : « ولكنك مطالب بأن تفى بوعدك ايضا ، الا وهو الزفاف ! ولنحتفل به ولنرقص حتى نحس بالالم يسرى فى سيقاننا سنة بطولها من بعده ! » .

وقال شيريفيك وهو يضرب كفا بكف : « مرحى ! مرحى ! انى لاشعر بالسعادة تفرنى كأنما قد حمل المسكوف امرأتى وهربوا بها ، وما الذى يدعونى الى معاودة التفكير فى الأمر ؟ ليكون الزفاف اليوم ان خطأ وان صوابا ، وهذا هو كل ما فى الأمر ! » .

« تذكر يا سولوبى هذا الوعد ، وسأوافيك بعد ساعة ، ولتذهب الآن الى دارك فتجد من يطلب منك شراء فرسك وقمحك » .

« كيف ؟ هل عثرتم على الفرس ؟ » .

« اجل » .

وعقد الفرح لسان شريفيك ، فوقف بلا حراك يشيع جريئسكو
بنظراته ، وقال النورى الطويل القامة للشاب الذى كان يغد السير :
« ما قولك يا جريئسكو ؟ اظن انك لا تستطيع ان تزعم اننى افسدت
الامر ! لقد اصبحت الثيران الان من حقى ، اليس كذلك ؟ » .
« بلى ! » .

لا تراعى ، لا تراعى يا حبيبتى
والبسى حذاءك الأحمر وطى
أعدائك تحت قدميك حتى
يصلصل كعباك المكسوان
بالحديد وتخرس السنة أعدائك
فلا يبدوا حراكا !

(اغنية زفاف)

جلست باراسكا وحيدة فى الكوخ تتأمل وتتفكر مسنده ذقنها الجميل
الى يدها ، وطافت براسها الجميل أحلام وأحلام ، وكانت تداعب
شفتيها القرمزيتين ابتسامه من حين الى حين ، ويخالجها شعور سار
مفرح فترفع حاجبيها الأسودين ، ثم تفشاها سحابة من شجن ،
فتقطبهما فوق عينيها العسلتين الصافيتين .

وهمست فى لهجة تنم عن الشك : « ولكن كيف تكون الحال اذا لم
يتحقق ما قال ؟ وكيف اذا رفضوا أن يزوجوني اياه ؟ وكيف وكيف . .
كلا ، كلا ، هذا لا يمكن ان يكون ابدا ! ان زوجة ابنى تفعل ما تشاء ،
فلم لا افعل انا ما اشاء ؟ وقد طبعت على العناد الشديد ، انا ايضا .
الا ما املحه ! وما ابدع عينيها السوداوين فى تألقهما ! ولكم يطيب لى ان
اسمعه يقول : « حبيبتى باراسكا ! » ، ويا لسترته البيضاء التى
تناسبه ! على ان حزامه يجب ان يكون اكثر تالقا ! وسانسج له حزاما
عندما تستقر بنا الحال فى كوخ جديد » .

وأخذت من صدرها مرآة صغيرة لها إطار من الورق الأحمر كانت قد اشترتها من السوق ، وراحت تحديق فيها وقد خالجهما شعور خفى بالرضا ، ثم مضت تقول : « لا أتمالك نفسى من السرور عندما أفكر فى اننى سألقاها يوما فى مكان ما . . . ولسوف تنفجر غضبا قبل أن أنحنى لها ! جل يا زوجة الأب ، لقد نلت من كنتك ما فيه الكفاية ، ولن أنحنى لك الا اذا نبتت الأزهار فى صميم الصخر وحنث شجرة السنديان على كما تحنو شجرة الصفصاف . ولكن لقد كدت أنسى . . فانى أريد أن أجرب لبس قبعة المرأة المتزوجة ، ولو كانت قبعة زوجة أبى ، هل تناسبنى ؟ » .

ثم نهضت وقد أمسكت المرأة بيدها وحنث رأسها لترى خياله فيها ، وراحت تسير فى الغرفة بحذر كأنما تخشى الوقوع ، فلم تر اديم الغرفة تحت قدميها ، بل رأت السقف تعترضه الألواح المستندة الى الروافد ، وهو الذى وقع منه ابن القس اخيرا ، كما رأت الأرفف وقد رصت عليها القدور .

وهتفت ضاحكة : عجبا ، اننى ابدوا كالطفل يخشى أن يخطو خطوة ! » .

وشرعت تدق الأرض بقدميها فى لطف ، وكلما مضت فى ذلك ازدادت جراءة ، ثم وضعت آخر الأمر يدها اليسرى على ردفها ، وراحت ترقص مجلجلة بكعبيها المكسوين بالمعدن مادة المرأة امامها صادحة بأنشودتها المحبوبة :

أيتها « الونكة » الخضراء الصغيرة (1)

التفى واهبطى الى !

وأنت أيتها الحبيبة الكحيلة العين

(1) الونكة : نبات مزهر .

اقبلى على !
أيتها الونكة الخضراء الصغيرة
التفى واهبطى ثم اهبطى الى !
وانت أيتها الحبيبة الكحيلة العين
اقبلى على أكثر وأكثر !

وأطل شريفك من الباب فى تلك اللحظة فرأى ابنته ترقص أمام
المرأة ، فوقف ساكنا ، وظل يرقبها طويلا وهو يضحك من هذه النزوة
الغريبة التى تملكها . وكانت الفتاة فيما يبدو قد استغرقت فى
الرقص فلم تلحظ شيئا وما أن سمع الأب نغمات الأنشودة المألوفة
حتى شعر بالدم يتدفق فى عروقه ، فخطا الى الامام وطوح بذراعيه
الى الوراى فى مرح ، وراح يرقص ناسيا كل ما كان ينبغى أن يفعله ،
وانطلقت ضحكة عالية من فم صديقه تسيبوليا ، فافزعت الأب
وابنته جميعا !

« يا للمنظر البديع ! الأب وابنته يقيمان زفافا لحسابهما ! هيا
وعجلا فقد جاء العروس ! » .

وصبغت حمرة الخجل وجه باراسكا عند سماعها هذه العبارة ، حتى
غدا أشد احمرار من الشريط الذى ربطت به رأسها ، وتذكر أبوها
الطروب واجبه .

فأنشأ يقول وهو يتلفت حوله فى خجل : « هيا يا ابنتى » ولنعجل !
فقد استخف الفرح خيفريا اذ علمت اننى بعت الفرس ، ومضت
تشتري لنفسها نقبات وهلاهيل من كل صنف ولون ، وعلينا أن ننتهى
من الأمر جميعا قبل أن تعود » .

وما ان اجتازت باراسكا العتبة حتى شعرت بذراعى الشاب صاحب
السترة البيضاء تطوقانها ، وكان ينتظرها خارج الدار ومعه حشد من
الناس .

وقال شريفك وهو يجمع أيديهما بعضهما الى بعض : « فليبارككما
الله ولترتبط حياتكما ارتباط الزهر فى باقته ! » .

وما أن بلغ هذا الحد حتى انبعث الضجيج من بين صفوف القوم .
وصاحت شريكة حياة شريفيك قائلة : والحشد الضاحك يدفعها
الى الوراء : « فلتنشق مرارتى ولا أسمح بهذا ! » .

فقال شريفيك فى برود وقد رأى رجلين قويين من النور يمسان
بيديها : « هذئى روعك يا امرأة ! ان ما تم لا يمكن الرجوع فيه ، وانا
لا أحب ان أسحب كلمتى ! » .

فصاحت خيفريا : « كلا ، كلا لن يكون هذا ! » ، ولم يلق أحد
ايبها بالا ، وأحاط عدد من الأزواج والزوجات بالعروسين السعيدين ،
وأقاموا حولهما نطاقا راقصا لا سبيل الى اختراقه .

ولو ان انسانا رأى هذا الحشد كله وقد جمع بين أفراده مشهد
من الوحدة والانسجام اشاعتها فى قلوبهم لمسة واحدة من قوس
عازف الكمان ذى الشارب الطويل المقتول والسترة المفزولة فى
البيوت لتملكه شعور غريب يعز عن الوصف . فقد انبعث رجال بدا
من وجوههم العابسة انه لم تطف بها قط ابتسامة أو ظلها ، وراح كل
من يلوذ بالحشد يدور ويرقص ، بل ان من قدر له أن يرى هذا
المشهد ليمتلكه شعور اكثر غرابة من ذلك واشد اعجازا اذا هو رأى
العجائز من النساء اللواتى تحمل وجوههن العتيقة برود القبر
وهموده وقد شققن طريقهن بين صفوف الشباب الضاحكين
الزاخرين بالحياة ، وكان الشراب وحده هو الذى يحملهن على القيام
بأفعال تشبه أفعال البشر حتى لكأن هذا الشراب عامل بارع يحرك
انسانا ميكانيكيا لا حياة فيه . لقد كانت هؤلاء النسوة اللاتى
لا يحفلن بشيء ولا يسرى فى أعطافهن مرح الشباب ولا يغمر قلوبهن
أثر من عاطفة أو ومضة من ومضات التجاوب ، يهززن رءوسهن
الثملة فى بطء وتمهل ، ويرقصن منساقات مع الحشد المرح
الطروب ، دون ان يحفلن بالقاء نظرة على العروسين الشابين .

وأخذت أصوات الضحك والغناء والضجيج تخفت ثم تخفت ،
وانطوى تغريد الكمان فى انغام مبهمه واهنة ثم تلاشى فى الفضاء .
وكانت أصوات الأقدام وهى تدق على الأرض لاتزال تسمع من بعيد
كأنها الهدير ينساب الى الأذن من مكان قصى ، وسرعان ما انتهى كل
شيء الى سكون وخواء .

اليس هذا هو حال الفرح ، ذلك الضيف الجميل المتقلب ،
حين يولى عنسا ؟ وهيهات ان تعبر النعمة الاخيرة عن السرور
والانشراح ، فهي تسمع في صداها هي نفسها رنة الحزن والخواء
وتنصت اليه ذاهلة حيرى . ثم اليس هذا ايضا هو حال اولئك
الصحاب الذين يلهون ويمرحون في شبابهم الحر الطليق العاصف،
ثم يغيبون واحداً بعد واحد في خضم هذا العالم الواسع ، ويتركون
خلهم القديم يعانى ما يعانى من الوحدة والحسرة ؟ الا ما اتعس
حظ من يبقى بعدهم ! ان قلبه لينوء بالهم والحزن وحده بلا
معين ولا نصير !

ليلة عيد القديس يوحنا



ليلة عيد القديس يوحنا (١)

قصة حقيقية رواها قنادلفت

لقد اثر عن فوما جريجوريفتش انه كان يكره كراهة التحريم ان يكرر قصة من قصصه ، على انه كان يستجيب لذلك احيانا اذا اقنعه أحد ، فان فعل اقحم عليها شيئا جديدا ، او بدل فيها تبديلا يغير معالمها الأصلية حتى يلتبس امرها عليك . وقد حدث ان واحدا من هؤلاء الناس - ويصعب علينا نحن البسطاء ان نعرف كيف نسميهم ، ذلك انهم ليسوا من السماسرة ، وانما هم اقرب الى البياعين في اسواقنا يستجدون ، ويخطفون ، وينشلون كل شيء ، ثم هم يخرجون كتابا صغيرا كل شهر او كل اسبوع ، لايزيد في حجمه على كتب القراءة المخصصة للأطفال - اجل، حدث ان انتزع احد هؤلاء السادة هـ هذه القصة بعينها من فوما جريجوريفتش الذي نسي كل شيء عنها . وقد اتفق ان وصل هذا السيد الشاب الى بلتاوة ، وهو الذي حدثتكم بأمره وشيكا ، وقرأتم فيما احسب قصته ، وكان يحمل معه كتابا صغيرا فتحه في منتصفه ثم اطلعنا عليه ، وهم فوما جريجوريفتش بأن يضع نظارته على قصبه أنفه ، الا انه تذكر انه قد نسي اصلاحها بالخيط والشمع فناولنى الكتاب ، ولما كنت اعرف القراءة ولا البس النظارات شرعت اقرأ بصوت مرتفع ، وما ان قلبت صفتحتين حتى امسك فوما جريجوريفتش بذراعى فجأة ثم قال :

(١) يوم عيد القديس يوحنا : عيد قديم من اعياد الصيف ، والاعتقاد الشائع ان السرخس يزهر ليلة العيد ، وان من يقتطف زهرة يجد كنزا دفيناً .

« انتظر لحظة ، وقل لى اولا : ماذا تقرا ؟ »

ولا اخفيك ان سؤاله هذا اصابنى بشيء من الدهول .

« ماذا تعنى يا فوما جريجوريقتش ؟ اننى اقرا قصتك .. بل كلماتك بعينها » .

« من قال لك انها قصتى ؟ » .

« واى دليل أفصح من هذا تريد ؟ لقد طبع هنا : رواها فندلفت كيت وكيت »

« لعنة الله على من طبع هذا ! وباله من وغد كاذب اوهكذا رويت انا القصة ؟ اميرونى اسماعكم ، ساقصها عليكم الآن » .

وانتقلنا الى المائدة وشرع فوما يقص علينا قصته .

كان جدى « رحمة الله عليه ، وكتب عليه الا ياكل فى العالم الاخر الا الارغفة المصنوعة من الدقيق الفاخر والكمك المصنوع من الخشخاش المخلوط بالشهد ! » قصاصا عظيما ، ما ان يشرع فى الحديث حتى تنصت اليه اليوم بطوله دون ان تحرك ساكنا . ولم يكن الرجل من طراز ثرثارى اليوم الذين يجعلونك تحس باحساس من يلتقط قبعته ويمضى بمجرد ان يراهم يبدءون فى نسج خيوط روايتهم بطريقة يخيل اليك معها انهم ظلوا ثلاثة ايام لا يجدون شيئا ياكلونه . وانى لاذكر جيدا كيف كانت امى ، تلك السيدة العجوز التى كانت على قيد الحياة وقتئذ ، تجلس فى امسيات الشتاء الطويلة ، والصقيع يغطى نافذة كوخنا الصغيرة ، ممسكة بيدها المفزل تجذب منه خيطا طويلا وتهز المهد بقدمها منشدة انشودة يبدو لى انها لا تزال ترن فى اذنى حتى الان . وكان الصباح يضىء الكوخ وهو يهتز ويرتجف كأنما كان يخشى شيئا ، والمفزل يطن ونحن الاطفال نتكأا. حول جدى منصتين اليه ، وكان الرجل قد طعن فى السن حتى انه لم يهبط من الموقد فى السنوات الخمس الماضية الا لاما . على ان رواياته العجيبة عن الايام الخالية وعن غزوات القوزاق الزابورجيين والبولنديين والفعال المجيدة التى قام

بها بودكوكفا ويولتورا كوزوخا وساجايداتشنى لم تك لتنال من اهتمامنا ما تناله القصص الخيالية المخيفة التى تتناول حوادث وقعت منذ امد بعيد ، وكانت هذه القصص يقف لها شعر رأسنا دائما ، وتسرى الرعدة فى أجسامنا ، بل ان الفزع كان يستبد بنا أحيانا ، فاذا جن الليل بدا لنا كل شئ غريبا مخيفا . وكان الواحد منا يخرج فى بعض الأحيان من الكوخ لبعض شأنه ليلا ، فيخيل اليه ان زائرا من العالم الآخر قد اندس فى فراشه. الا فليحل بى القضاء ولا يكتب لى ان اعيش حتى اقص هذه القصة مرة أخرى ان كنت اكذب فى قولى بأن الشيطان فيما يخيل الى قد دفع سترى فانطوت طى الوسادة . على ان اهم ما كانت تتصف به قصص جدى هو انه لم يكذب فى حياته قط ، بل ان كل ما رواه لنا قد وقع فعلا .

وسأقص عليكم الآن قصة من قصصه العجيبة ، وانى لأعلم ان طائفة كبيرة من ذوى الفطنة يشجون فى المحاكم مايشجون بل يقرءون الخط الحديث ، وان كانوا لا يستطيعون اذا وضعت بين ايديهم كتاب صلاة بسيط ، ان يقرءوا حرفا واحدا منه ، ومع ذلك تجدهم قد برعوا ايما براعة فى التهمك والسخرية ! فهم يسخرون بكل ما تنبهم به ، وهذا الكفر بدأ ينتشر فى أرجاء العالم كله ، عجبا ! انكم ستجدون مشقة فى تصديق ما أقول ، ولكن لتنزل بى نقمة الله والعدراء المقدسة ان كنت احث فيما أقول . لقد بدرت منى ذات يوم كلمة عن الساحرات وكان بين القوم رجل جرى القلب لا يؤمن بهن ، وهأنذا قد عشت بفضل الله طوال هذه السنين وأدركت اناسا سهل عليهم الكذب أثناء الاعتراف بقدر ما سهل على ان أصيب شيئا من السعوط ومع ذلك فقد كانوا يرسمون اشارة الصليب ليستعيذوا من شر الساحرات ، ولكنهم اذا رأوا فى منامهم - ويحسن بى الا اذكر مايرون - فالله أعلم كيف يكون حالهم !

ولم يكن أحد يعرف حال قرينتنا منذ سنوات طويلة تزيد على مائة عام على ما قال لنا المرحوم جدى ، فقد كانت دسكرة ، بل

أشد الدساكر فقرا ! كانت تتألف من اثني عشر كوخا أو نحوها تناثرت في الحقول دون ان تطلّى بالملاط أو تعلوها سقوف مناسبة، ولم تك ثمة سياجات أو حظائر بمعنى الكلمة يمكن ان تحفظ بها الماشية أو العربات ، اذ كانت هذه الحياة مقصورة على الاثرياء ، أما نحن فياليتك شاهدت أمثالنا من الفقراء ، فقد ألفنا ان نحفر حفرة في الأرض ونجعل منها كوخنا ! ولم يك أحد ليدير مقام عباد الله هؤلاء الا من الدخان المتصاعد من هذه الحفرة ، وما أحرالك ان تتساءل : لم يعيشون على هذا النحو ؟ ولم يكن السبب في ذلك هو الفقر ، فقد كان جل الناس في تلك الأيام من القوزاق يرجعون الى ديارهم بزاد وافر من الطيبات يحملونه من البلاد الأخرى ، وانما كان السبب هو ان هؤلاء القوم كانوا يرون ان اقامة الكوخ الصالح أمر عديم الجدوى ، ذلك ان الناس على تباين أشكالهم كانوا يجوبون البلاد وقتئذ كاهل القريم والبولنديين واللوانيين ، بل ان المواطنين كانوا يهبطون علينا أحيانا عصابات عصابات ويجردوننا مما نملك ، وكانت تختلف علينا الحوادث من كل نوع وصنف .

وكثيرا ما كان يظهر في تلك الدسكرة رجل ، أو قل شيطان في صورة انسان ، فلا يدرى احد : لم جاء أو من اين جاء ؟ كان يشرب ويمرح ، ثم يختفى كأنه تبدد في الهواء ، ولا يعود يسمع عنه أحد خبرا ، ثم يتجلى فجأة كأنه هبط من السماء ، وينطلق في طرقات القرية التي كانت لا تبعد عن ديكانكا أكثر من مائة خطوة تقريبا ، وان لم يبق لها أثر الآن ، وكان يلحق ببعض القوزاق الشاردين حينما ، فترتفع عقيرتهم بالضحك والغناء ، وينفقون المال عن سعة ، وتسيل الفودكا من بين أيديهم كأنها الماء ، ويخص بعنايته الفتيات حينما آخر ، فيفدق عليهن الأشرطة والأقراط والقلائد حتى يحرن ، فلا يعرفن ما عساهن ان يصنعن بها ، وكانت الفتيات بطبيعة الحال يفكرن مرتين قبل ان يتقبلن هداياه ، ذلك ان الشك كان يساورهن ، فمن يدرى ؟ لعل الشيطان نفسه هو مصدر تلك الهدايا ، وقد تحدثت عمه جدى في هذا الأمر ، وكانت صاحبة

حانة على الطريق الذي يعرف اليوم بطريق ابوشنيا حيث الف
بأسافريوك - وهذا هو اسم ذلك الفتى الشيطان - ان يختلف
اليه كثيرا يلهو ويمرح . أجل تحدثت عمدة جدى فقالت : أنها ما
كانت لتقبل هدية منه ولو وهبوا لها كنوز الأرض جميعا ، ولكن
كيف كان يتاح لهن الرفض ؟ وقد كان الرعب يملك الجميع اذا
قطب حاجبيه الكثين ، والقى من تحتها بنظرة تجعل أقوى الأقباء
يولى الأدبار . واذا اتفق وقبلت فتاة هدية منه فقد كان من المحقق
ان يزورها في الليلة التالية خل من خلاله ينزل الى المستنقع وقد
نبتت القرون في رأسه ، ويحاول خنقها اذا كانت تلبس قلادة أو
يعض اصبعها اذا كانت تلبس خاتما ، أو يشد شعرها اذا كانت
تضع فيه شريطا ، اذن فلعنة الله على هداياه الجميلة ! على ان
اشق ما في الأمر هو انه كان من المستحيل عليك التخلص من هذه
الهدايا ، فان القيت بها في الماء طفت القلادة الملعونة أو الخاتم
الملعون ، وعاد الى يديك مباشرة .

وكان في القرية كنيسة ، هي كنيسة القديس بانتيلي ، ان لم تك
خانتنى ذاكرتى ، وكان قسيسها في تلك الأيام هو الأب افناسى ،
طيب الله ثراه ، وقد لاحظ افناسى ان بأسفريوك لم يختلف الى
الكنيسة قط حتى في أحد اعياد الفصح ، فحاول أن يلومه وينذره
بالعقاب تنزله به الكنيسة ، ولكن لا حياة لمن تنادى ! فقد مر
بأسافريوك بحدائه مرة حتى كاد يحف به وأجابه صائحا : «استمع
الى ياسيدى الصالح ، لتلزم حدك ، ولا تتدخل في شئون غيرك
من الناس ، الا اذا كنت تريد ان يفص حلقك الذى يشبه حلق
التيس بالبليلة الساخنة » ، فأى فائدة كانت ترجى من هذا الفتى
الملعون ؟ لقد اكتفى الأب افناسى بأن أعلن ان كل من يعاشر بأسافريوك
يصبح كاثوليكيًا وعدوا لكنيسة الله وللناس أجمعين .

وكان في القرية نفسها قوزاقى يدعى كورز يستخدم عاملا عرفه
الناس باسم بترو المقطوع النسب ، وربما كان السبب في ذلك انه
لم يكن يذكر والديه أحد ، وقد جرى سادن الكنيسة على القول

بأن والديه ماتا بالطاعون وهو بعد في السنة الأولى من عمره ، على ان عمه جدى كانت تنكر ذلك كل الانتكار وتبذل قصارى جهدها في خلع الانساب عليه . على ان بترو المسكين لم يك يهتم بأنسابه اقل اهتمام . وكانت هذه المرأة تقول : ان اباه لا يزال في زابورجى ، وان الترك اسروه ، وقاسى على ايديهم الوانا من العذاب لا يعلمها الا الله ، ثم هرب بطريقة عجيبة متنكرا في زى خصى . على ان الفتيات ذات الحواجب السود والفيد من النساء لم يكن يحفلن بنسبه اقل احتفال ، بل اكتفين بالقول بأنه لو ارتدى رداء جديدا ، ولبس قبعة سوداء من فراء استراخان وحلاها بقنزعة زرقاء ، وتمنطق بحزام احمر ، وامتشق حزاما تركيا ، وحمل في احدى يديه صوتا وفي اليد الأخرى غليوننا جميلا ، لبز جميع شبان الناحية . الا ان بترو المسكين لم يك يملك الا سترة رمادية واحدة فيها من الثقوب اكثر مما في جيب اليهودى من القطع الذهبية . ولم يكن هذا هو بيت القصيد ، وانما كان بيت القصيد هو انه كانت لكورز العجوز ابنة رائعة الحسن لا احسب انكم رايتم لها مثيلا من قبل ، وكانت عمه جدى تقول ، والنساء كما تعلمون يؤثرن تقييــــــــــــل الشيطان ، وفاكم الله ، على ان يصفن الفتاة بالحسن : ان وجنتى الفتاة المكورتين كانتا تحاكيان الخشخاش نضرة وبهاء اذ يبدو في ارق حله الوردية حين يتالق وقد جلله الندى ونشر اوراقه وراح يتانق في ضوء الشمس المشرقة ، وان حاجبيها الشبيهين بالعقود السود تشتريها فتياتنا اليوم من البائعين المسكوف المتجولين ليعلقن فيها الصلبان او قطع النقود ، كانا قد سويا في اجمل تقويم حتى بدوا انهما يحدقان النظر في عينيها الصافيتين ، وان فمها الصغير الذى كان الفتيان يكادون يلتمونه بأنظارهم التهاما ، قد تجلى للناس كأنما خلق ليصدح بأنقام البلابل ، وان شعرها الذى يشبه في سواده الليل الفاحم ويحاكى في نعومته نبات الكتان الفضى ، كان يسترسل في ثنيات غزيرة على سترتها الموشاة بالذهب « ولم تكن فتياتنا في تلك الايام يصفرن شعورهن صفائر يربطنها بالاشرطة الزاهية اللون

ولا كتب الله لى أن أعود فأصبح بحمده مع المرتلين ان أحجمت عن تقبيلها على الفور الآن ، على الرغم من الشيب الذى أخذ يدب فيما بقى لى من شعر فى رأسى ، وعلى الرغم من زوجتى العجوز التى تحل دائما عندما يقتضى الأمر غيابها . على انكم تعلمون جميعا منعساه ان يحدث اذا أقام فتى بالقرب من فتاة . لقد كانت آثار الحذاء الأحمر الصغير تشاهد ، قبل مطلع الشمس ، فى البقعة التى كانت بيدوركا تحدث فيها بترو ، على ان كورز لم يكن ليساوره فى الأمر أدنى شك ، لولا ان بترو – ولاشك ان هذا من فعل الشيطان – ركب رأسه يوما فطبع على شفتى الفتاة القوزاقية الورديتين قبلة قوية فى غرفة الانتظار دون ان يستوثق تماما من انه بعيد عن عيون الرقباء . وقد أغرى ذلك الشيطان نفسه – وليرين ابن الكلب هذا الصليب المقدس فى منامه ! – بأن يدفع الرجل العجوز الى أن يفتح الباب ، ثم وقف كورز مشدوها ، وتعلق بالباب فاغرا فاه ، والظاهر ان القبلة المعونة أدارت رأسه تماما حتى بدت له أعلى صوتا من الرطمة تصيب جدار المدوك يجلجل به الفلاحون فى ايماننا لطرد الأرواح الشريرة ، اذ كانت تعوزهم البنادق والبارود .

وافاق كورز من ذهوله ، فجذب سوط الركوب الخاص بجده من الحائط ، وهم بأن يهوى به على ظهر بترو المسكين ، واذا بايفان اخى بيدوركا البالغ من العمر ست سنوات يهرع الى الغرفة ويطوق بذراعيه ساقى العجوز ، وقد تملكه الفزع ، وأخذ يصيح : « لا تضرب بترو يا ابتاه ! »

ولم يكن فى الأمر حيلة ، ذلك ان قلب الأب لم يكن قد من صخر ، فعلق السوط على الجدار ، وساق بترو فى هدوء خارج الكوخ ، وقال له : « لو رأيتك مرة أخرى فى كوخي أو ظهرت تحت النوافذ وحسب لحققت شاربك الأسود ، وانتزعت قنزعتك من جلد رأسك وان كانت من الطول بحيث تلتف مرتين حول أذنك، ولا كنت تيرنتى العجوز ان لم أفعل ! »

وما ان اتم قوله حتى لطمه لطمه خفيفة على قفاه ، فانكفا بترو
على وجهه فلم يبصر شيئا ، وكان ذلك عاقبة قبلاته .

وفاض الحزن بحبيبين المتناجين ، ثم انطلقت اشاعة في القرية
تقول : ان زائرا جديدا كان يشاهد دائما في محل كورز وكان هذا
الزائر رجلا بولنديا يرفل في وشى من ذهب ، وله شارب وسيف
ومهماز وجيوب ترن رنين الجرس على الكيس يحمله تاراس قندلفتنا
في تجواله حول الكنيسة كل يوم . وانا لنعلم جميعا : لم يزور
الناس ابا فتاة كحيل العين ؟ وقد اتفق ذات يوم ان اخذت
بيدوركا اخاها الصغير ايفاس بين ذراعها وهي غارقة في دموعها
وهتفت به قائلة : « ايفاس يا حبيبي ! انطلق انطلق السهم من
قوسه ، يا قرة عيني ، وامض الى بترو ، وقل له كل شيء ، قل
له : ان مناي ان اھيم في حب عينيه العسليتين ، وان اقبل وجهه
الجميل ، ولكن القدر يابي على ذلك . لقد بلت بدموعي الحري
اكثر من منديلين كبيرين ، اما قلبي فيكاد ينفطر من الحزن والاسى !
ان ابي هو عدوى وهو يكرهنى على الزواج من ذلك البولندى
البغيض ، قل له : انهم يستعدون للزفاف ، ولكن لن تصدح
الموسيقى في زفافنا ، وسيرتل القساوسة بدلا من المزامير والقيثارة ،
ولن اخرج للرقص مع عروسى ، بل سيحملونى حملا ، وسيخيم
الظلام على مسكنى المصنوع من خشب الاسفندان ، وسيرتفع فوقه
صليب بدلا من المدخنة ! »

ووقف بترو مشدوها بلا حراك كالحجر الاصم ، وهو يستمع الى
كلمات بيدوركا يلقيها عليه الطفل الساذج ، وقد شاب نطقه لثقة :

« اما انا الفتى المسكين التعس فقد كنت افكر في الذهاب الى
اقريرم او تركية لافوز بالذهب في الحرب ، ثم اعود اليك يا حبيبتى ،
ولكن هيهات ! لقد اصابتنا عين شريرة حسود وسيكون لى انا ايضا
زفاف يا حبيبتى ، ولكن لن يشهد زفانى احد من رجال الدين ، بل
سينعق الغراب الاسحم فوق راسى بدلا من القسيس ، وسيكون

السهل الواسع مسكنى ، وغيوم العاصفة الكالحة السقف الذى يظلمنى ، ولينتزعن النسر عينى العسليتين ، وتكسح الامطارعظامى القوزاقية ثم يجففها الأعصار، ولكن ماهذا الذى اقول ؟ ولن اشكو؟ وممن ؟ يخيل الى انها ارادة الله ، فان كان قد كتب على الهلاك فانى لا محالة هالك ! » ، ثم مضى الى الحانة لايلوى على شىء .

وتولى عمه جدى شىء من الدهشة عندما شاهدت بترو يلم بالحانة فى ساعة يقف فيها المسيحى الصالح بين يدى ربه يؤدى صلاة الفجر ، وحملت فيه مذهولة حين طلب ابريقا من الفودكا سعته نصف سطل أو بكاد ، وعشا حاول الفتى المسكين أن يفرق احزانه فى الخمر ، فقد كانت الفودكا تلسع لسانه كحشيشة القريض، وتراعى له انها أمر من الشيبة ، فالقى بالابريق على الأرض .

وانبعث صوت من فوق رأسه يقول : « خل عنك الحزن أيها القوزاقى ! »

فالتفت - واذا به يجد باسافريوك ! اف ، يا لغرابة منظره ! لقد كان شعره كالشوك ، وعيناه كعيني النور .

« انى لأعلم ما أنت فى حاجة اليه : انه هذا ! » ثم ضحك ضحكة شيطانية ، وراح يصلصل بالجيب الجلدى الذى كان يحمله فى حزامه .

وجفل بترو :

وصاح الرجل الآخر وهو يصب القطع الذهبية فى يده المبسوطة كالوعاء : « ها ! انظر كيف تتألق ! وكيف ترن ! وانك لتعلم اننى لا أسألك نظير كومة كاملة من هذه الشخاشيخ البراقة الا أمرا واحدا »

فصاح بترو : « يا للشيطان ! افصح ، فانى مستعد أن افعل أى شىء ! » وتصافح الرجلان على ما تعاهدا .

« اعلم يا بترو بأنك جئت فى وقتك ، ففى الغد يكون عيد القديس يوحنا المعمدان ، وهذه هى الليلة الوحيدة فى السنة التى يزهر فيها الديرشار ، فايالك أن تضع هذه الفرصة ، وسأكون فى انتظارك حين ينتصف الليل فى اخدود اللب »

ولا اظن ان شوق الدجاج الى اللحظة التي تجيء له فيها ربة الدار بالحب كان أشد من شوق بترو لحلول المساء ، وراح الفتى لايميل من النظر ليرى : ايطول الظل الذي تلقيه الشجرة ، ويتورد ضوء الشمس الغاربة بحمرة الخجل ؟ وكان صبره ينفد ثم ينفد كلما مرت الساعات ، وبألها من ساعات تمر بطيئة ثقيلة ! وكان النهار الذي خلقه الله قد ضل فلم يعرف له نهاية ينتهي عندها ! ثم غربت الشمس آخر الأمر ، ولم يبق الا خط أحمر يلوح في جانب من السماء . على ان هذا الخيط أيضا كان آخذا في الزوال، وقد ازداد الجو برودة في الحقول ، وراح الضوء يخفت ثم يخفت حتى ادلهم الظلام أخيرا ! ومضى بترو في طريقه وقد هم قلبه بأن يقفز من بين ضلوعه ، ثم هبط في حذر مجتازا الغابة الكثيفة حتى بلغ شقا عميقا في الأرض كان الناس يعرفونه باسم أخدود اللب . وكان باسافريوك قد سبقه الى ذلك الموضع ، وأصبح الليل حالك السواد لايرى فيه المرء كفه اذا بسطها امامه ، وأخذ كل منهما بيد صاحبه ، وشقا طريقهما في مستنقع موحل ، فطلق الشوك النامي فيه بملايسهما ، وراحا يتعثران في كل خطوة يخطوانها تقريبا، ثم بلغا آخر الأمر مكانا مستويا ، وتوقف بترو ليرى ماحوله ، ذلك انه لم يكن قد ألم بهذا الموضع من قبــــــــــــل قط ، وتوقف باسافريوك أيضا .

« اتري هذه الروابي الثلاث التي امامك ؟ لسوف تنمو فوقها الازهار من جميع الالوان والاشكال ، ولكن لتحفظك الأرواح التي تحل في هذا المكان من ان تقطف زهرة منها . ومتى ازهر الديشار كنت في حل من ذلك ، ولكن لا تلتفت وراءك مهما تخيلت من شيء يدور وراءك » .

وأراد بيترو ان يسأله سؤالا ، ولكن هيهات ! لقد اختفى الرجل وصعد الى الروابي الثلاث . فأين هي الازهار؟ ولكن بيترو لم ير منها شيئا ! فقد كان العشب الغزير قد غشيه السواد في كل مكان وطفى بغزارة نموه على كل ما عداه ، ثم انبعثت في السماء ومضة من برق الصيف ورأى بيترو امامه مهذا كاملا من الزهور ، كلها رائع وكلها جديد عليه ، ورأى هناك أيضا ريش الديشار البسيط ،

فتحير في أمره ووقف مذهولا وذراعاه في خاصرتيه .

« ولكن ماوجه العجب في ذلك ؟ ان المرء ليشاهد من هذا القبيل اشياء مرات كل يوم ، وما من عجب في ذلك ، ومن يدري لعل الشيطان اراد أن يسخر مني ؟ »

ورأى فجأة زهرة صغيرة تلتفت وتحرك كأنما دبت فيها الحياة . لقد كانت هذه الزهرة مدهشة حقا ! ذلك انها اخذت تتحرك وتنمو ثم تنمو ثم تضرب الى الأحمرار كالجمره ، وبزغ على حين غرة نجم صغير ، وانتزع شئ من الأشياء من مكانه ، وتفتحت الزهرة امام عيني بترو ، وسكبت الضوء على ماحولها من الزهور كأنها الشعلة .

وقال بترو بينه وبين نفسه : « لقد حان الوقت ! » ومد يده ، الا انه رأى بفتة مئات من الأيدي الخشنة الكثة تمتد من خلفه تحاه الزهرة ، واخذ شئ يمرق من خلفه روحة وجيئة ، وأغمض الفتى عينيه وجذب الساق فاذا بالزهرة في يده ، ثم ساد السكون ، وظهر باسافريوك وقد شحب لونه شحوب الموتى جالسا على جذمور شجرة لا يحرك اصبعها ، وعيناه متعلقتان بشئ لا يستطيع رؤيته الا هو ، وقد انفتح فمه نصف فتحة ولم يصدر عنه اى صوت ، ولم يتحرك شئ مما حوله . لقد كان الموقف رهيبا ! ثم انبعث آخر الأمر صوت صغير بعث الرعدة في اوصال بيترو ، وخيل اليه ان العشب كان يتهامس والزهور تتحدث بأصوات رقيقة كأنها رنين الأجراس الفضية ، وتجاوبت الأشجار بزئير الرياح المزمجرة ، ودبت الحياة فجأة في وجه باسافريوك ولعت عيناه ، ودمدم من بين اسنانه هاتفا : « لقد عدت ايتها الساحرة العجوز ! انظر يا بيترو ! لتسفرن لك غادة فاتنة ، فافعل كل ماتأمرك به أو تصبح من الهالكين ابد الأبدين ! »

ثم فرق بعضا ذات عقد شجيرة من الحسك ، واذا بكوخ صغير يظهر « كوخ ساحرة كما يقولون في قصص الجن والعماريت » وضرب باسافريوك الكوخ بقبضة يده فتداعى منه الجدار ، وانطلق كلب أسود كبير للاقاتهما ، ثم استحال قطا وقفز هاربا وهو يصيح في وجهيهما .

وقال باسافريوك : « لاتفضي أيتها الساحرة العجوز ! » ،
ومزج عبارته بسباب يسد له الرجل الصالح أذنيه ، وعندئذ
انتصبت امرأة عجوز في الموضع الذي كان يقف فيه القط ، وقد علتها
الغضون والتجاعيد كأنها التفاح المطهو ، وانحنى ظهرها حتى تلاقي
أنفها وذقتها ككسارة البندق .

وقال بيترو بينه وبين نفسه : « يا للجمال الفاتن ! » ، وسرت
في جسده رعدة .

واختطفت الساحرة الزهرة من يده ، وقضت وقتا طويلا تتمتم
عليها وتنضحها بماء من نوع خاص وكان الشرر يتطاير من قمها وقد
علت شفيتها شيات من الزبد ، وقالت وهي ترد إليه الزهرة :
« الق بها » ، فألقاها بيترو ، ومن عجب انها لم تقع على الأرض
لتوها بل ظلت معلقة في الفضاء وقتا طويلا كأنها كرة من نار تضيء
في الظلام ، ثم أخذت تطفو في الهواء كالعقارب ثم راحت تهبط في
بطء ، ثم سقطت بعيدا جدا حتى بدت كالنجم الصغير لايزيد حجمها
عن بذرة الخشخاش ، وأنبعثت العجوز تخرخر في صوت خاوي
النبرات وهي تنسج نسيجا : « هالك ! » ، ومضى باسافريوك يقول
وهو يناوله مجرفا : « احفر هنا يا بيترو ، تر من الذهب ما لم
تحلم به انت أو كورز ! »

وتفل بيترو في يديه ، واختطف المجرف ودفعه في الأرض بقدمه
وأخرج التراب ثم ملاً مجرفا آخر بالتراب .. راتبه ثالثا ..
ورابعا ، ثم ارتطم المجرف بشيء صلب ، وأبى أن يوغل في الأرض
أكثر مما أوغل ، واستطاع بيترو أن يبصر بعيني رأسه صندوقا
صغيرا مطوقا بالحديد ، وحاول أن يمسه ، ولكن الصندوق غاص
في الأرض ثم غاص ، ورنّت خلفه ضحكة كضحك الأفاعى أو هي أقرب .

وهتفت به الساحرة : « كلا ! لن ترى الذهب حتى تريق دم
انسى ! » ، وجاءت له بطفل في السادسة أو نحوها ملفوفا بغطاء
من النسيج الأبيض ، وأخذت تشير إليه بأن يفصل رأسه عن
جسده ، وعقدت الدهشة لسان بيترو ، يا للهراء ! أقتل انسيا ،
بل طفلا بريئا ، من غير جريرة ؟ ونزع في غضب غطاء النسيج عن
الطفل ، فماذا رأى ؟ رأى أمامه ايفاس ! وكان الطفل المسكين قد

شبك يديه على صدره ، ونكس رأسه ، وانقض بيثرو كالمجنون على الساحرة والسكين في يده ورفع يده ليضرب

وصاح باسافريوك في صوت كالرعد : « وأين وعدك الذي وعدت اكراما للفتاة ؟ » ونفذت كلماته في قلب بيثرو كالرصاصة ودقت الساحرة الأرض بقدمها ، فانثق من الأرض لهب أزرق أضاء جوفها نفسه حتى بدا كأنما صنع من البلور ، وتكشف للأنظار كل شيء تحت سطح الأرض ، وظهرت قطع الذهب والأحجار الكريمة في صناديق وقدر مكمومة أكراما في الموضع الذي كانوا يقفون فوقه ، وتوقدت عينا بيثرو وأصابه دوار ، وأمسك بالسكين كمن أصابته لوتة ، وانثق الدم الطاهر أمام عينيه ، وجلجلت من حوله ضحكات شيطانية ، وأخذت وحوش مخيفة تقفز قطعانا امامه ، وقبضت الساحرة بيديها على الجثة المقطوعة الرأس، وراحت ترتوى من الدماء كأنها الذئب ، ودار رأس بيثرو ، وبذل جهد اليأس حتى استطاع أن يسلم ساقيه للريح ، وغشى كل شيء من حوله ضوء احمر ، وبدت الأشجار وهي غارقة في الدماء كأنها تشتعل وتثن ، وكانت السماء الحمراء المتوهجة تنتفض وترتجف ، ومضت أمام عينيه ومضات من نار كأنها البرق ، وجرى يلهث لها شديدا حتى بلغ كوخه ثم ارتمى على الأرض فاقد الوعي ، واستغرق في نوم شبيه بالموت .

ونام بيثرو يومين وليلتين دون أن يستيقظ ، وأفاق من غشيته في اليوم الثالث ، وانبعث يحملق في أركان الكوخ ، وعبثا حاول أن يذكر ما وقع له ، فقد كانت ذاكرته كجيب الشيخ البخيل يتعذر عليك أن تخرج منها فلسا ، ثم تمطى قليلا فسمع صوت شيء يخشخش عند قدميه . لقد كان ثمرة كيسان من الذهب عند موطىء قدميه ، وتذكر عندئذ فحسب ، أجل تذكر كما لو كان في حلم ، أنه كان يبحث عن كنز، وأنه كان وحيدا مستطار اللب في الغابة ، ولكنه لم يستطع أن يتذكر الثمن الذي دفعه لقاء هذا الكنز ولا الوسيلة التي توسل بها للحصول عليه .

ورأى كورز الكيسين فلان قلبه ، وأخذ يثنى على بيثرو بكيت وكيت، مبدبا انه لا يستطيع ان يفيه حقه : « أو لم يك مشغوبا

به دائما ؟ أو لم يكن منى في منزلة الابن؟» ، ومضى الشعب المعجوز مشتطا في ثنائه حتى تأثر بيترو وطفرت الدموع من عينيه ، وانطلقت بيدوركا تحدته كيف خطف بعض النور الذين مروا بهم ايفاس ، ولكن بيترو لم يستطع ان يذكر وجه الغلام نفسه ، ذلك ان تلك الفعالم الشيطانية الملعونة كانت قد اذهلته واطارت منه اللب .

ولم يك ثمة داع للتمهل والتأخير ، فقد ردوا العروس البولندى خائبا مقطوع الرجاء ، واخذوا يعدون العدة للزفاف وخبزوا كعك الزفاف وطرزوا المناشف والمناديل وأخرجوا برميلا من الفودكا ، واجلسوا الشاربين الى المائدة وقطعوا كعكة الزفاف ، وعزفوا على الزمار والقيثارة و « البندورة » (1) ودقوا الصنوج ، ثم راحوا يلهون ويمرحون .

ولا وجه لمقارنة حفلات الزفاف اليوم بما كانت عليه في هاتيك الايام التى الفت عمه جدى ان تحدثنى عنها ، وبالها من ولائم ! لقد كانت تقص على كيف كانت الفتيات يرقصن مطوفات بالغرفة فى رشاقة الطواويس ، ويحففن بك طاويات الأرض كالزويعة ، وقد ارتدين لباسا للرأس انيقا من شرائط صفر وزرق وفى لون الورد وعصبنه بصفيرة ذهبية ، وقمصانا جميلة طرزت كل طية من طياتها بالحرير الأحمر وزينت بالأزهارالفضية الصغيرة ، ووضعن فى أقدامهن أحذية مراكشية من ذوات الكعوب العالية والنعال الملبسة بالحديد، وكيف كانت الزوجات الشاببات يرتدين غطاء للرأس يشبه القارب ، صنعت قمته كلها من نسيج حريرى موشى بالذهب وقد شق من الخلف شقا صغيرا تبص من تحته القبعة الذهبية ، وحلى هذا الغطاء بقرنين صغيرين من ارقى أنواع الفراء الأستراخانى الأسود، احدهما فى مقدم الرأس والآخر فى مؤخره ، كما ارتدين سترات زرقا من احسن انواع الحرير لها اهداب حمر ، وقد وضعن أذرعهن فى خواصرهن فى اباء واعتزاز بالنفس ، ورحن يخرجن الواحدة فى اثر الأخرى من الحلقة ليرقصن رقصة «الهوباك» فى ايقاع رتيب منتظم، وكيف كان الفتيان بقبعاتهم القوزاقية الطويلة ، وستراتهم البدعية النسج ، وأحزمتهم الموشاة بالفضة واسنانهم مطبقة على غلاينتهم

(1) البندورة آلة موسيقية روسية .

يزاملون هؤلاء الزوجات الشابات في الرقص ويقفزون كل أنواع القفز .
وشاهد كورز الفتیان فلم يسعه الا أن يستعيد شبابه ، وراح يرقص
ويغنى والبندورة في يديه والغليون في فمه ، وأخذ في الوقت نفسه
يثبت كأسا على رأسه . الا ما أغرب ما يفكر فيه القوم عندما
يأخذون في اللهو ! انهم يبدعون مثلا بوضع القناعات على وجوههم ،
يا الهی ! انهم ليبدون عندئذ كالوحوش سواء بسواء ! آه ! لقد كان
الأمر في تلك الأيام يختلف كل الاختلاف عما يأخذ به الناس أنفسهم
الآن من لباس في حفلات الزفاف التي تقام اليوم ، فماذا يفعلون
اليوم ؟ ان كل ما يفعلون هو أن يلبسوا ملابس عجيبة تحاكي ملابس
النور أو المسكوفيات ، أما في الأيام الخالية فقد كان القوم ما بين
يهودي وشيطان يبدعون بأن يقبل الواحد منهم الآخر ثم يشرع في شد
قنزعة رأسه ، تائه أن المرء كان يضحك حتى ينشق جنباه من
الضحك . وكان القوم يرتدون الملابس التركيه والتتريه تتألق جميعها
تألق النار ، فاذا شرعوا في العبث واداء الاعيهم لم يك ثمة حد لما
يفعلون ! وقد وقعت لعمة جدی حادثة مضحكة وكانت قد حضرت
ذلك الزفاف ، ترتدى ثوبا تتريا فضفاضا ، وتقدم الخمر الى الجمع
من قدح في يدها ، ذلك ان الشيطان أوعز الى شخص من الحاضرين
بأن يرش الفودكا عليها من الخلف ، وكان بين الحاضرين شخص آخر
لا يقل فيما يظهر مهارة من ذلك الشخص ، فقد اشعل في الوقت
نفسه عود ثقاب وأوقد فيها النار ، وتأجج اللمب ، وتملك الرعب
عمتى المسكينة وانبعثت تخلع ملابسها جميعا امام الجمع كلهم ،
وارتفعت الضوضاء وعلا الضحك وانطلق الضجيج عنيفا صاخبا حتى
اصبح المكان كالسوق ! والحق ان الشيوخ لم يبق في ذكرتهم زفاف
بلغ فيه المرح ما بلغه في ذلك الزفاف .

وبدات بيدوركا وبيترو يعيشان عيشة الزوج والزوجة من افاضل
القوم ، وتيسر لهما من كل شيء نعيم وافر ، وكان كل ما عندهما
جديدا كل الجدة ، ولكن أهل التقى والصلاح كانوا يهزون رؤوسهم
قليلاً وهم يراقبون حياتهما ، وراحوا يقولون جميعا كأنهم رجل
واحد : «لاخيراً يأتي به الشيطان ، ترى من أين له بهذه الثروة
ان لم تكن قد اتته من ذلك الذي يضل المسيحيين الصالحين

بفوائته ؟ أجل من أين له هذا الكوم من الذهب ؟ ولم اختف
باسافريوك في اليوم الذي أترى فيه بيترو ؟ »

ولعلك ترى ان الناس -تتقول الأقاويل! ولكن الحق انه لم ينقض
على هذه الحال شهر حتى كان يتعذر على أى انسان معرفة بيترو،
ولم يكن يعلم الا الله ماذا حدث له ، فقد كان يجلس ساكتا لاياتى
بحركة ولا ينطق بكلمة لاي مخلوق ، كان دائما مستغرقا فى تأملاته ،
يحاول فيما يظهر ان يتذكر شيئا ، فاذا أفلحت بيدوركا فى حمله على
الكلام بدا له انه نسى ما يشغل باله ، ثم يواصل معها الحديث ، بل
قد يظهر عليه المرح ، فاذا وقع نظره مصادفة على الكيسين قال :
« انتظرى انتظرى ، لقد نسيت ! » ثم يعود الى الاستغراق فى
تأملاته محاولا أن يتذكر شيئا . وكان يخلد الى السكون وقتنا طويلا،
ثم يبدو عليه انه على وشك أن يتذكر كل شيء . . على ان هذا
الخاطر لايلبث أن يختفى . وخيل اليه مرة انه كان جالسا فى حانة
ثم جاءوا بالفودكا ، فألهبت جوفه ، ذلك انها كانت رديئة ، وأقبل
عليه شخص وربت كفه - ثم غم عليه بعد ذلك كل شيء كأنما
غشيته ضبابية ، وكان العرق يتصبب على وجهه فيعود الى الجلوس
وقد نال منه التعب والاجهاد حتى أضناه .

ولكن هل تركت بيدوركا شيئا فى وسعها ولم تفعله من أجله ؟
لقد فرغت الى الدجالين تلتمس عندهم المشورة ، وصبت الشمع فى
الماء ، وأحرقت قطعة من القنب (1) على ان ذلك كله لم يجده نفعا .
ورلى الصيف ، وكان كثير من القوزاق قد فرغوا من حصد محصولهم
وجمعوه ، وخرج للقتال أكثرهم اقداما واستهتارا بالحياة ، وكانت
أسراب البط لاتزال كثيرة فى مستنقعاتها ، ولم يكن بينها صعوبة
واحدة ، واصطبغت السهوب باللون الأحمر ، وانتشرت فى أرجاء الحقول

(1) اذا تملك الرعب احدا وأراد القوم أن يعرفوا السبب فى ذلك صبوا الشمع
أو التصدير الذائب فى الماء فيتخذ صورة ذلك الشيء الذى أثار الرعب فى قلبه ، ويزول
عنه هذا الرعب . وكان القوم يحرقون القنب شغاف للمريض أو ابراء لداء المعدة فتشمع
النار فى قطعة من القنب ، وتلقى فى كوز يقلب على طاس من الماء يوضع على معدة المريض،
ثم يرددون تعويذة ويعطونه ملء ملعقة من الماء يشربها .

أكداس من القمح تحاكي فلانس القوزاق ، وكنت تصادف في الطرق العربات محملة بحزم الحطب وكتل الخشب ، وازدادت الأرض رسوخا وصلابة في مواضع ، والم بها الصقيع في مواضع ، وبدا الجليد يتساقط وكسا غصون الأشجار حطته ، فبدت كقراء الأرنب البرى ، وانطلق الدقتاش « وهو العصفور الأحمر الصدر » في يوم شديد الصقيع مفتشا عن البذور في أكوام الجليد يتبختر كأنه سيد بولندي أنيق ، وكان الأطفال يضربون دواماتهم الخشبية على الجليد بعصى غليظة ، على حين جلس آباؤهم ساكنين على أريكة الموقد يخرجون من ديارهم بين الفينة والفينة قابضين بأسنانهم على غلايينهم المشتعلة ليلعنوا صراحة ذلك الصقيع المسيحي الصالح ! أو يستنشقوا الهواء ويدرسوا الحنطة المخزونة في غرفة دارهم الخارجية .
وبدا الجليد يدوب آخر الأمر ، وحطمت الحربة بذيلها الجليد كما يقولون !

ولكن بيترو ظل على حاله، بل ازداد بمرور الزمن كآبة على كآبة ، فكان يجلس في وسط الكوخ كأنه تسمر في مكانه وكيسا الذهب عند موطىء قدميه ، ويتحاشى الاختلاط بالناس وقد ترك شعره ينمو وبدات ملامحه تتغير تغيرا بشعا ، ولم يك يفكر الا في شيء واحد. لقد ظل يحاول ان يتذكر شيئا ، وأقلقه أشد القلق وأغضبه أعظم الغضب عجزه عن تذكره ، وكثيرا ما كان يهب واقفامن مقعده جامعا مهتاجا ، يلوح بذراعيه ويحملق في شيء كأنما يريد ان يمسكه، وكانت شفتاه تتحركان كمن يريد ان ينطق بكلمة طال عليه نسيانها - ثم يظل بعد ذلك ساكنا بلا حراك . كان قد غلبه الغضب والهيياج على أمره وكان يقرض يديه وبعضهما كمن به جنة ، ويمزق شعر رأسه حفانا من شدة الضيق والكرب حتى يعود الى الهدوء مرة أخرى ويبدو كأنه في لجة النسيان ، ثم يبدأ من جديد فيعاود التذكر، ويرجع الى شأنه ، فيستبد به الهيياج والعذاب . لقد كان ذلك نقمة أنزلتها به السماء !

أما بيدوركا فلم يعد في حياتها ما يستحق ان تعيش من أجله ، ذلك انها كانت في أول الأمر تخاف ان تظل وحيدة في الكوخ ، ثم الفت المسكينة ما رماها به القدر من شقاء وتعس ولكن ما من أحد

كان يعرف انها هى بيدوركا المعهودة ، فقد غاض الدم فى وجنتيها ، واخفت الابتسامة من شفتيها ، كانت تذوب أسى ويضمحل جسمها ويذوى ، وكانت تبكى بكاء يطفىء ضياء العين ويذهب بنورها. وأشفق عليها مرة انسان فنصحها بأن تمضى الى الساحرة المقيمة فى أخدود اللب ، التى اشتهر عنها انها تشفى جميع الأمراض فى هذا العالم . واستقر رأيها على ان تجرب هذه الوسيلة الأخيرة ، واقنعت الساحرة شيئاً فشيئاً بأن تأتى معها الى الدار ، وكان ذلك فى ليلة عيد القديس يوحنا بعد ان غربت الشمس ، وكان بيترو مستلقياً على الأريكة وقد استغرق فى تأملاته فلم ير الزائرة وهى تدخل ، ولكنه أخذ يهم بالجلوس رويدا رويدا وينظر اليها ، ثم انتفض فجأة كأنه على المشنقة ، ووقف شعر رأسه ثم انفجر ضاحكا ضحكة ذهبت بلب بيدوركا ، وصاح فى فرح مخيف : « تذكرت ! تذكرت ! » وتناول فأسا بسرعة وألقى بها بكل قوته على العجوز ، ونفذت الفأس فى الباب المصنوع من السنديان بوصتين ، واخفت العجوز، واذا بطفل فى السابعة أو نحوها يرتدى قميصا أبيض ويغطفى رأسه بغطاء ، يقف فى وسط الكوخ ، وانحسر النقب عن رأسه فهتفت بيدوركا قائلة : « ايفاس ! » ثم هرعت اليه ، الا ان الشبح كان ملطخا بالدم من قمة رأسه الى اخمص قدمه ، وانبعث منه ضوء أحمر غمر أنحاء الكوخ جميعا ، وجرت بيدوركا الى الفرفة الخارجية وقد ملأ الرعب قلبها، ولكنها ثابت الى رشدتها وتاقت نفسها الى مساعدة أخيها ، ولكن هيهات ! فقد انصفق الباب من خلفها حتى تعذر عليها فتحه ، وجاء الجيران ركضا وراحوا يقرعون الباب ثم اقتحموه ، ولكنهم لم يجدوا داخل الكوخ أحدا ، فقد امتلأت أرجاؤه جميعا بالدخان ، وانما كان يقوم فى وسطه حيث كان يقف بيترو ، كوم من الرماد لايزال يتصاعد الدخان منه ، واندفع الجيران صوب الكيسين فوجدوهما مليئين بكسرمن الشقف بدلا من قطع الذهب ، وأوقعت هذه المعجزة فى قلوب القوزاق من الرعب والفرع ما جعلهم يقفون كأنهم تسمروا فى الأرض ، وقد انفجرت أفواههم وجحظت عيونهم ، ولم يجدوا فى أنفسهم من الشجاعة ما يسمح لهم بتحريك رمشي واحد من رموشهم .

ولست اذكر ما حدث بعد ذلك ، فقد نذرت بيدوركا ان تخرج في رحلة للحج ، فجمعت كل ما خلفه لها ابوها من متاع واختفت بعد ايام قليلة من القرية ، ولم يدر احد اين ذهبت ، الا ان بعض الثرغارات من العجائز تفضلن فأعلن انها لحقت بييترو ، على ان قوزاقيا قادما من كييف زعم انه رأى في الدير راهبة ذوى جسمها ،

ونحل حتى بليت كالشبح ، وانقطعت للصلاة انقطاعا ، وقد عرف القرويون مما وصفها به ان هذه الراهبة هي بيدوركا ، وانباهم ان رجل أيضا بانه لم يسمعها أحد قط تنطق بحرف ، وانها جاءت الى الدير سعيا على قدميها ، وحملت معها رصيعة لابقونة السيدة العذراء ضمت من الجواهر المتلاثة ما يبهر كل عين تقع عليها .

ولكن اسمحوا لي بأن أقول لكم ان القصة لم تنته عند هذا الحد، فقد عاد باسافريوك الى الظهور في اليوم الذي قتل فيه الشيطان بييترو ، ولكن الناس جميعا كانوا يهربون منه ، فقد تبينوا الآن أى صنف من المخلوقات هو ! اذ ما من مخلوق يتنكر فى صورة الانسان ليستخرج من باطن الأرض كنزا دينا الا الشيطان نفسه . على ان الأيدي الدنسة لم تكن لتمس الكنز، فعمد الشيطان الى اغراء الشبان المستهترين بمعاونته ، وفى السنة نفسها هجر الناس جميعا اكواخهم القديمة وانتقلوا الى قرية كبيرة تجاور قريتهم ا ولكنهم لم يسلموا فى هذه القرية نفسها من شر باسافريوك الملعون ، وقد جرت عمه جدى على القول بأنه غضب عليها خاصة لأنها هجرت حانتها القديمة التى كانت فى طريق ابوشنيا ، وبذل قصارى جهده ليشتريها منها .

واجتمع شيوخ القرية ذات يوم فى حانتها ، وراحوا يتداولون كل على قدر عقله ، كما يقول المثل ، وقد جلسوا حول المائدة وكان يتوسطها كبش كامل مشوى ، وانى لأجانب الحق لو قلت انه صغير . أجل كانوا يتداولون فى شتى الموضوعات ، وفى المعجزات والوقائع الغريبة ، وتراءى لهم فجأة ان الكبش يرفع رأسه وتتألق عيناه السوداوان الماكرتان وتذب فيهما الحياة ، ولو ان واحدا منهم فحسب هو الذى تراءى له ذلك لهان الأمر بطبيعة الحال ، ولكنهم جميعا شاهدوا هذا الذى حدث دفعة واحدة - ونبت الكبش فجأة شارب خشن أسود أخذ يفتله فى وجه الجماعة فتلا له مفزاه ، ولم

يلبثوا جميعا ان تبينوا في رأس الكبش وجه باسافريوك ، بل خيل الى عمه جدى انه لم تمض لحظة حتى يبادر بطلب القودكا ، وتناول الشيوخ الفضلاء قبعاتهم وهرعوا الى بيوتهم .

وحدث في يوم آخر ان سادن الكنيسة الذى الف ان يخلو الى كأس الأسرة نصف ساعة يقضيها في هدوء وسكون ، لم يكذب يفرغ ما فى الكأس مرتين حتى رآها تنحني له فصاح قائلا : « ألا فليذهب بها الشيطان ! » ، وأخذ يرسم اشارة الصليب . ووقع في الوقت نفسه حادث غريب لشريكة حياته ، ذلك انها ما أن أشرفت على ان تنتهى من خلط الدقيق في قصعة كبيرة حتى قفزت القصعة فجأة وطارت بعيدا عنها ، فصاحت الزوجة : « قفى ! قفى ! » ، ولكن لا حياة لمن تنادى . فقد وضعت القصعة ذراعها في خاصرتها ، وراحت ترقص في وقار ورزانة في أرجاء الكوخ جميعا . وقد يشير فيكم ذلك من الضحك مايشير ، ولكن الأمر لم يكن يدعو الى الضحك عند جدودنا ، وقد انطلق الأب افناسى في القرية يرش أرجاءها جميعا بالماء المقدس ، ويطرد الشيطان بالرشاشة من كل طريق ، الا ان عمه جدى ظلت تشكو زمنا طويلا قائلة : ان المساء لم يكن ليحل حتى تسمع شخصا يقرع على السقف ويخربش في الجدار .

ولكن رويدكم ! فقد يذهب بكم الظن الى ان الهدوء والطمأنينة قد شملا في الوقت الحاضر ذلك المكان الذى تقوم فيه قريتنا ، على أنكم تعلمون أن الأحوال ظلت على ما هي عليه الى عهد ليس ببعيد ، عهد يذكره أبى ، بل أذكره أنا حقا ، فقد كان الرجل الصالح لا يستطيع ان يمر بالحانة الخربة التى أصلحها اهل الدنس بعد ذلك بأمد طويل على حسابهم ، اذ كان الدخان يتصاعد سحائب من المدخنة القادرة ، ويضرب في السماء حتى كانت قبعة المرء خليقة بأن تسقط عن رأسه وهو يتطلع اليه ، وينشر الحمر في أرجاء السهب . وقد الف الشيطان - وقانا الله ذكره لعنة الله عليه - أن ينتحب فى وكره نجيبا محزنا يلقى الرعب في قلوب الغربان المرتاعة ، فتفزع من الغابة المجاورة أسرابا أسرابا ، وتنتشر في السماء مطلقه صرخات آبدة مستوحشة .

ليلة من ليالى شهر مايو
أو العذراء الغريقة



ليلة من ليالى شهر مايو

أو العذراء الفريقة

لا يعلم هذا الأمر الا الشيطان
وحده ! فما أن يشرع المسيحيون
في عمل من الأعمال حتى يرهقوا
انفسهم ثم يرهقوها كأنهم كلاب
تطارد أرنباً برياً ، وتذهب
جهودهم جميعاً هباء ، فاذا
ما تدخل الشيطان لم يقتض
ذلك منه الا انتفاضة من ذيله !

- ١ -

حنة

انسابت أغنية في طرقات القرية انسياب النهر مجلجلة تتردد
وتتردد ، وكان ذلك في الساعة التى ينفض فيها الفتیان والفتيات
عن كاهلهم ما ينوء به من مشاغل اليوم ومتاعبه ، ويجتمعون فى نور
المساء الصافى المورد يتدفق المرح والبهجة من قلوبهم انعاماً لا تخلو
من رنين الحزن والأسى . وكان المساء الحانى يحتضن هائماً فى أحلامه
السماة الزرقاء الداكنة ، فيضفى على كل شىء جواً من الغموض

والسمو . وكان الغسق قد حل ولكن الغناء لم يكف ، وانفلت ليفكو ،
الشباب القوزاقى وابن شيخ القرية ، من زمرة المنشدين وفى يده
بندورة ، وكان يرتدى قبعة من الاستراخان ، واجتاز الطريق وهو
يضرب على اوتار البندورة ويرقص على نغماتها ، ثم وقف آخر الأمر
فى هدوء امام باب كوخ تحيط به اشجار الكرز القصيرة العود . ترى
من كان صاحب الكوخ ؟ ولمن كان هذا الباب ؟ وساد الصمت لحظات
لم انطلق ليفكو يعزف ويعنى :

ها هى ذى الشمس قد انحدرت ، واوشك المساء ان يحل فاخرجى
الى يا حبة قلبى !

وفرغ القوزاقى من اغنيته وقال : « ايه يا فتاتى الجميلة المشرقة
العين ، يخيل الى انها مستغرقة فى النوم » ثم اقترب من النافذة
وراح يهتف : « حنة! حنة ! انائمة انت ام تراك لا تريدين الخروج
الى ؟ اظن انك تخافين ان يرانا احد ، ام لعلك لاتريدين ان تطللى بوجهك
الصغير الفاتن فى هذا البرد ! لا تراعى ، فاللكان خال ، والمساء دافىء ،
ولئن لم بنا احد غطيتك بسترتى ولففت حزامى حولك ووقيتك
بذراعى ، فلا يرانا احد ، واذا انبعثت فى الجو لفحة من البرد ضممتك
الى قلبى اكثر واكثر ، واشعت الدفء فى جسمك بقبلاتى ، ووضع
قبعتى على قدميك الصغيرتين البيضاوين ، يا بهجة قلبى ، وحبة
فؤادى ، وقررة عينى ! اطللى على لحظة ، وان شئت فحسبى ان
تمدى يدك البيضاء الصغيرة من النافذة » ، ورفع صوته وهتف فى
لهجة تنم عن خجله من انه اذل نفسه لحظة : « كلا ! لست نائمة
ايتها القادة الابية المتعالية ، وانما يسرك ان تسخرى منى ، فوداعا »
ودار على عقبه ، وسوى قبعته على راسه ، ومضى رافع الراس ،
يضرب اوتار البندورة فى رقة وعذوبة ، واذا بالمقبض الخشبى يدور
وينفتح الباب فى صرير ، وتطل فتاة فى ربيعها السابع عشر وقد شاع

في وجهها خفر وحياء وطواها النسق في غلالته ، واجتازت الفتاة عتبة الباب دون أن تترك المقبض ، وتألفت عينها المشرقتان في الضوء الخافت كالنجوم ، ولملت قلاذتها المصنوعة من المرجان الأحمر ، بل ان حمرة الخجل الرقيقة التي صبغت وجنتيها لم تخف على الفتى الحديد البصر .

وقالت له الفتاة في صوت خفيض : « ما اقل صبرك ! وفيه هذا الغضب الذي اعتراك ؟ ولم اخترت هذه الساعة ؟ ان جموعا من الناس يسيرون في الطريق روحة وجيئة ، واني لانتفض اذا ... » .
وجلس الفتى معها على باب الكوخ ، وراح يطوقها بذراعيه ، وألقى الى جانبه بندورته التي كانت معلقة في عنقه بسير طويل من الجلد ، ثم قال : « اواه ! لا ترتعدى يا ريحانة قلبي ! والتصقى به أكثر وأكثر ! فانك لتعلمين مقدار ما أحس به من عذاب اذا بعدت عنك ساعة من زمان » .

وقالت الفتاة وهي ترمقه بنظرات المستغرق التأمل : « أتدرى ما أفكر فيه ؟ يخيل الى أن شيئا لا ينفك يوسوس في قلبي بأننا لن نلتقى كثيرا ، ذلك أن القوم هنا ليسوا من خيار الناس ، فالفتيات جميعا ينظرن الى والحسد يأكل قلوبهن ، وكذلك الفتيان ، بل اني للاحظ أن أمي قد جرت أخيرا على التشدد في مراقبتي ، ولا أنكر عليك ان الحياة كانت تطيب لى أكثر عندما كنت أقيم بعيدا عن هذه الديار » .

وعلت وجهها مسحة من الحزن وهي تنطق بهذه الكلمات الأخيرة .
« هل تقضين شهرين في هذه الديار فحسب ثم يدركك السأم ؟
ملك سئمتنى أنا أيضا ! » .

فاجابته وهي تبتسم : « كلا ، لم أسأمك ، بل انى لأحبك أيها القوزاقى الكحيل العين ! أجل أحب فيك عينيك العسليتين ، ويخيل

الى حين تروا الى أن السرور يغمر قلبي فيفيض بالبشر والسعادة !
وأحب فيك أنك تغفل شاربك الأسود على نحو يبعث في النفس
البهجة والسرور ! وأحب فيك أنك تسير في الطرقات مغنيا وعازفا
على البندورة ، ثم ان الاستماع اليك متعة » .
فصاح الفتى وهو يقبلها ويضمها الى صدره : « آه يا حبيبتى
حنة ! » .

« امسك ! وحسبك يا ليفكو ! وقل لى اولاً : هل انبات اباك ؟ .
فقال وكأنه يستيقظ من نوم كان مستغرقا فيه : « أخبره بماذا ؟
باننى أريد ان اتزوج وانك ستكونين زوجتى ؟ أجل ، لقد انباته » ،
على أن عبارته الأخيرة قد شابها الحزن وهى تخرج من بين شفتيه .
« وبعد ؟ » .

وما حيلتى معه ؟ لقد تظاهر هذا الوغد المجوز بالصم كشأنه
دائماً ، وأشاح بسمعه عنى ، ثم راح ينهرنى على تسكعى ، والله
يعلم أين ، ويلومنى على الانطلاق فى الطرقات أنا وخلانى نمرح
ونعبث ، ولكن لا تحزنى أيتها الحبيبة حنة ! فانى أعدك وعد قوزاقى
بأن أتحايل عليه » .

« حسبك أن تنطق بالكلمة يا ليفكو فيكون لك كل ما تريد ، وانى
لاتبين ذلك فى نفسى ، فقد يبدو لى فى بعض الاحيان الا اطيعك ،
ولكنك ما ان تنطق بكلمة واحدة حتى أجدنى مسوقة الى فعل
ما تريد » ، ثم مضت تقول وهى تلقى براسها على كتفه وتلتفت
متطلعة الى السماء الأوكرانية العامرة بالدفع تجلى بزرقتها الداكنة
من خلال غصون أشجار الكرز المورقة التى انتصبت امامهما : « انظر !
انظر ! انظر ، هنالك تجد على البعد النجوم تتلألأ - واحد ، اثنان ،
ثلاثة ، اربعة ، خمسة ، انها ملائكة الخالق تفتح نوافذ مساكنها
المتألقة فى السماء وتطل علينا ، اليس كذلك يا ليفكو ؟ انها ترمق

أرضنا بنظراتها اليس كذلك ؟ لو أن للناس أجنحة كالطيور لارتفعوا إليها في عليائها ، آه من هذا الأمر الرهيب ! اليس هنا شجرة سنديان واحدة ترتفع الى عنان السماء ؟ ولكنهم يقولون ان ثمة شجرة في بلاد نائية تبلغ عنان السماء ، وسينزل الله عليها الى الأرض في ليلة عيد الفصح .

« كلا يا حنة ، فان لله سُلما يصل بلا عوج من السماء الى الأرض ، وينصبه رؤساء الملائكة الأبرار قبل احد الفصح ، وما أن يضع الله قدمه على الدرج الأول منه حتى تخر جميع الأرواح الشريرة منكبة على وجوهها وتهوى زمرا في قرار الجحيم ، ولذلك لا تجدين روحا شريرة واحدة على ظهر الأرض في عيد قيامة المسيح .»

ومضت حنة تقول : « ما أعذب خريير الماء يتناغى كالطفل يرقد في المهد ! » وراحت تشير الى البركة وهي تبدو في اطرافها الداكن من شجر الاسفندان والصفصاف النائح تحنو عليها اغصانه حتى تغوص في مائها ، وتضم السماء النائية المظلمة كالشيخ الواهن في حضنها البارد ، وتمطر بقبلاتها المقرورة الكواكب تتألق في ذلك الخضم الدافئ من هواء الليل كأنها كانت تحس بمقدم ملكة الليل الزاهرة ، وهجع فوق التل بجوار الأجمة بيت عتيق من الخشب أغلقت مصاريع نوافذه ، وغطى الطحلب والعشب سقفه ، ونشرت أشجار التفاح غصونها أمام النوافذ . وكانت الأجمة تلف البيت بظلالها وتلقى عليه شبحا من الظلام تفرغ له القلوب ، وقام في طرف الأجمة دغل من اشجار البندق ينحدر حتى يصل الى البركة .

وقالت حنة وهي لا ترفع عينها عن البيت : « انى لأذكر كما لو كنت في حلم أن الناس منذ أمد بعيد ، بعيد جدا ، حين كنت أقيم

مع أمى ، كانوا يروون عن هذا البيت قصة تلقى الفزع فى القلوب ،
ولا شك أنك تعرف تلك القصة يا ليفكو ، أفلا تقصها على ؟ » .

« دعيك من تلك القصة يا فاتنتى ، فان العجائز والحمقى يروون
من القصص اشكالا وانواعا ، ولن ينالك منها الا بلبله الخاطر والفزع
واننوم المضطرب » .

فقال وهى تلتصق وجهها بخده وتطوقه بذراعها : « بل قصها
على ! قصها على أيها الحبيب الكحيل العين ! ما بالك تحجم ؟ اذن
فأنت لا تحبنى ، وانما تحب فتاة اخرى ، لن ينتابنى الخوف ،
وسأستغرق فى النوم بالليل ، ولن يرور الكرى اجفانى ان لم تقصها
على ، بل سيستبد بى القلق . واغرق فى لجة من التفكير ، فبالله
قصها على يا ليفكو ! » .

« يبدو ان القوم قد أصابوا بقولهم ان الفتيات مصابات بداء
الفضول الذى لا يكف عن اللاحاح عليهن ، ليكن ما تريدن وأعيرينى
سمعك » :

« حدث منذ امد بعيد يا حبة القلب ان كان ضابط من القوزاق
قد ألف العيش فى ذلك البيت ، وكانت له ابنة ، غادة حسناء ،
ناصرعة البياض كالثلج بل فى بياض وجهك الصغير . وكانت زوجته قد
توفيت منذ وقت طويل ، فقرر رايه على أن يتزوج مرة اخرى ، فسألته
ابنته « أبته اوتظلنى برعايتك كمهدك حين تتخذ لك زوجة اخرى؟ »
فأجابها ابوها بقوله : « أجل ، وانى لفاعل يا ابنتى ، وسأضمك الى
قلبى فى حنان يفوق ما عهدت من قبل ! أجل سيكون هذا شأنى ،
وسأعطيك أقراطا وفلائد اشد تألقا من كل ما نلت منى من قبل ! » .
« وحمل الاب زوجته الشابة الى بيتها الجديد ، وكانت بهية

الطلعة بيضاء متوردة ، ولم يكن من هذه الزوجة الا ان حدثت ابنة زوجها بنظرة مخيفة حتى ان الفتاة صرخت عندما رأتها . ولم تقل لها زوجة ايها العاتية كلمة واحدة اليوم بطوله ، وجن الليل ، ومضى الاب مع زوجته الشابة الى غرفة نومه ، واغلقت الفتاة الحسنة باب غرفتها الصغيرة عليها ، وشعرت بالحزن يغشى فؤادها ، فراحت تبكى ، ورفعت رأسها فرأت قطة سوداء بشعة الخلق تتسلل اليها ، وكانت فروتها تلمع وبرائنها الفولاذية تخدش الأرض ؛ فقفزت الفتاة وقد استبد بها الفزع الى اريكة ، ولكن القطة لحقت بها ، فارتقت اريكة الموقد ، فوثبت القطة خلفها أيضا ، ثم انقضت فجأة على عنقها وشرعت تخنقها ، فتخلصت من القطة وهي تصرخ وألقت بها على الأرض ، وعادت القطة المخيفة تتسلل اليها ، فغلبها الخوف على أمرها ، وكان سيف أبيها معلقا على الجدار ، فانتزعت انتزاعا وهوت به حتى ارتطم بالأرض محدثا صوتا مجلجلا، واطار مخلصا من مخالب القطة ببرائنه الفولاذية واختفت القطة وهي تعوى في ركن مظلم من أركان الغرفة .

« اما الزوجة الشابة فلم تبرح غرفتها يومين كاملين ، وفي اليوم الثالث خرجت من الغرفة معصوبة الذراع ، ووقع في روع الفتاة المسكينة أن زوجة ايها ساحرة وانها قطعت ذراعها . وفي اليوم الرابع طلب الاب من ابنته أن تأتي بشيء من الماء ، وتكنس المنزل كما تفعل الفلاحة الدليلة ، وحرّم عليها دخول الغرف الخاصة به ، وهكذا كان حظ الفتاة البائسة سيئا ، ولكن لم يك لها في الأمر حيلة ، فلبت مطالب ايبيها ، وطرده الاب ابنته في اليوم الخامس ، فخرجت من المنزل عارية القدمين ، ولم يتفضل عليها بكسرة خبز تبليغ بها ، وعندئذ فحسب ، ركعت الفتاة ، وراحت تنتحب مخيفة

وجها الأبيض بين يديها ، وهتفت به : « ابتاه ! لقد رميت بابنتك الى التهلكة ! وانزلت الساحرة الدمار بروحك الائمة ! غفر الله لك ، ان مشيئة الله قد قضت بالأا اعيش فى هذا العالم الجميل » ، والتفت ليفكو الى حنة مشيرا الى المنزل واردف يقول : « وهناك . . . اترين ؟ انظرى فى هذا الاتجاه ، هنالك من اعلى جزء فى الشاطيء ! اجل ، من تلك الضفة اقت الفتاة بنفسها فى الماء ، ولم يرها احد منذ تلك الساعة » .

وسألته حنة فى صوت ينم عن الرعب والفرع ، وهى تحملق فيه بعينين دامعتين و « الساحرة » ؟ .

« الساحرة ؟ تستنتج العجائز مما حدث ان جميع الفتيات اللاتى اغرقن أنفسهن فى البركة يخرجن منذ ذلك الحين الى الحديقة فى الليلالى القمرية طلبا للدفاء ، وعلى رأسهن ابنة ذلك الضابط . وقد رات الفتاة الفريقة زوجة أبيها بجانب البركة ذات ليلة ، فانقضت عليها ، وجرتها الى الماء وهى تصرخ ، ولكن الساحرة استطاعت ان تنقل نفسها حتى فى ذلك الوقت ، فقد تمصت تحت الماء صورة فتاة من الفريقات ، ونجت بذلك من الجلد باليراعات الخضر التى كن ينوين ان يضربنها بها ، ولتثقى بقول هؤلاء العجائز ! ثم انهن يقلن ايضا : ان ابنة الضابط تجمع الفتيات الفريقات كافة كل ليلة وتنظر فى وجه كل منهن ، محاولة ان تجد الساحرة ، ولكنها لم توفق بعد ، وما ان تلقى أى انسان حتى تحمله على التكهن : أى الفريقات هى الساحرة ؟ فان أمسك ، هددته باغراقه فى الماء وهذه يا عزيزتى حنة هى رواية العجائز للقصة ، أما صاحب الأرض الحالى فيود ان يقيم معملا لتقطير الخمور فى ذلك الموضع ، وقد أرسل مقطرا للخمور الى

هنا ليعمل على تنفيذ الفكرة .. ولكنى أسمع أصواتا ! انها أصوات
رفاقنا في طريقهم الى العودة من العناء . طابت ليلتك يا حنة !
استغرقى فى النوم، ولا تفكرى فى قصص اولئك النسوة المعجائز ! » .
وما أن قال هذا حتى طوقها بذراعيه فى حرارة ، وقبلها ثم مضى
الى حال سبيله .

فقال حنة وهى تحلق حالة فى الأجمة المظلمة : « طابت ليلتك
ياليفكو » .

وفى تلك اللحظة بدأ قمر كبير يتوهج ويرتفع من وراء الأفق فى
عظمة وجلال ، وكان نصفه لا يزال مختفيا وراء الأفق ، الا انه غمر
الكون جميعا بفيض من ضوءه السنى المهبب ، وتألقت البركة وتلالا،
وبرزت ظلال الأشجار واضحة جلية على صفحة العشب القائم .
« طابت ليلتك يا حنة ! » ، وقد انبعثت هذه الكلمات من خلفها
مقرونة بقبلة .

وقالت وهى تلتفت الى الخلف : « هانت ذا قد عدت ! » ،
ولكنها رأت فتى لم تكن تعرفه ، فأدارت رأسها وسمعت مرة أخرى
من يهتف بها : « طابت ليلتك يا حنة ! » وأحست للمرة الثانية
بقبلة تنطبع على خدها .

فقال غاضبة : « لقد جاء الشيطان بفتى آخر ! » .

« طابت ليلتك يا حبيبتي حنة ! » .

« وهذا هو الثالث ! » .

« طابت ليلتك ، طابت ليلتك يا حنة ! » وانهمرت عليها القبلات

من كل جانب .

فصاحت حنة : « وى ! انهم لعصبة كاملة من الفتيان » ، وراحت تنتزع نفسها من بين ذلك الحشد من الفتيان الذين كانوا يتزاحمون على تقيلها ، ومضت تقول : « عجبى لهم ، لا يسأمون من هذا التقبيل الذى لا ينقطع ! لن يمضى وقت طويل حتى يستحيل على ان أخرج الى عرض الطريق ! » .

« وانصفق الباب وهى تنطق بهذه الكلمات ، ولم يسمع من بعد صوت الا صوت المزلاج الحديدى وهو يصر مستكنا فى بيته .

راس القسرية

ترى هل اتيح لك أن تشهد ليلة من الليالي في اوكرانيا ؟ ولكن ، هيهات ان تكون قد شهدت ليلة من تلك الليالي ! الا فلتنظر اليها تجد القمر يطل على الأرض من عليائه في كبد السماء ، وقد ازدادت قبتها الهائلة رحابة على رحابة ، وراح القمر يتلالا ويتنفس ، فتمر الأرض جميعا بضوئه الفضي ، وانطلق الهواء العليل ينعش النفوس ويمر القلوب بالدفاء ، ويشير فيها الرغبة والاشتهاء ، وينشر في الأرجاء دنيا من الأريج والعبير . ويا لها من ليلة علوية تسحر وتفتن ! وقفت فيها الغابات ساكنة بلا حس ولا حركة ، وغشيتها جو من الغموض ، وشاع في جنباتها الوجوم ، والقت على الأرض ظلالات ضخمة ، وهدأت البرك ، وخمدت حركتها ، وحف بمائها البارد الكئيب اطار من البساتين الخضر الداكنة ، ومدت الادغال البكر من شجر الكرز البرى جذورها في استحياء الى الماء البارد ، واتبعثت غصونها تهمهم من حين الى حين كأنها غضبي ساخطة ، اذ يتسلل اليها نسيم الليل ، ذلك الماكر الظريف ، ويقبلها وهجع الريف كله ، واستسلم للنعاس ، على حين ظل كل العالم الذي يرف عليه يتنفس حافلا بآيات الروعة وانتصار ، وتمتلئ النفس بهذه الرحابة والروعة ، وتنبعث الأحلام الجميلة من اعماقها محقة زمرا يجمع بينها التناسق والانسجام .

يا لها من ليلة علوية تسحر وتفتن ! ثم تدب الحياة في كل شيء فجأة : في الغابات والبرك والسهوب ، ذلك ان صيحات البلب الأوكراني الرائعة تنطلق ، فتقطع سكون الليل ، ويخيل للمرء أن القمر نفسه راح ينصت اليها في كبد السماء ، وتهجع القرية القائمة على النجد كأنما مسها السحر بسلطانه ، وتتألق الأكوخ جماعات في ضوء القمر ، فتزداد نصوعا وحسنا عن المألوف ، وتتبدى جدرانها المنخفضة في الظلام مجلوة تخايل النظر أكثر وأكثر ، وكان الفناء قد توقف وشمل السكون كل شيء ، وأخذ القوم الصالحون الذين يخشون الله الى النوم ، الا من ضوء يبص هنا وهناك من النوافذ الضيقة ، وعائلة تأخر بها النوم تجلس أمام باب هذا الكوخ او ذلك تتناول عشاءها .

وراح فلاح كهل ثمل كان يرقص في الطريق ، يقول بينه وبين نفسه : « ولكن هذه ليست الطريقة المتبعة في رقصة الهوباك ، وقد كنت اعلم انها خطأ ، ترى ما الذي كان يقوله لى خلى القديم ؟ اى نعم ، هوب ! ترا - لا ! هوب ، ترا - لا ! هوب ، هوب ، هوب ، هوب ! وانى لاقسم أن هذه ليست الطريقة المتبعة في رقصة الهوباك ، وای داع يدعونى الى الكذب ؟ أجل ، انى لاقسم انها ليست الطريقة الصحيحة ، هلم ، هوب ، ترا - لا ! هوب ، ترا - لا ! هوب ، هوب ، هوب ، هوب ! » .

وصاحت امرأة مكتهلة كانت تمر به حاملة ملء ذراع من القش : « انظروا الى ذلك الأبله الثمل ! انه ليس بالفتى اليافع ، وانما هو خنزير عجوز يرقص في الطريق ليلا كأنما يريد أن يحمل الأطفال على الضحك ! عد الى دارك ! و قد كان أولى بك أن تكون مخلدا الى فراشك منذ وقت بعيد ! » .

فقال الرجل وهو يكف عن الرقص : « انى للذاهب ، انى للذاهب ،
ولست احفل بأى رأس من الرؤوس ، أیظنن – كتب الله على ابيه ان
یرى الشيطان – انه يستطيع ان یسمح بانفه على كل انسان لانه
رأس القرية ولانه یسكب الماء البارد على الناس ابان الصقيع ! ومن
یکون هذا الرأس حقا ؟ انما انا رأس نفسى ! الا فليهلكنى الله ان لم
اكن ، اننى رأس نفسى » ، ثم استرسل یقول : « هذا هو الحق
وما من حق سواه » ومضى فى طريقه ، ثم یم شطر اول كوخ قاداته
اليه قدماه ، ووقف امام النافذة ومر بأصابعه على لوح الزجاج
محاووا ان یجد مقبض الباب ، ثم هتف : « افتحى ایتها الزوجة !
ودعى الكسل ، افتحى ! لقد آن لهذا القوزاقى ان یأوى الى
فراشه ! » .

وصاحت بعض الفتيات من خلفه متضاحكات ، وهن فى طريق
عودتهن من ذلك الفناء والمرح : « الى اين یالكالينيك ؟ ليس هذا
بكوخك ! او ندلك على خوكك ! »

« ارشددننى اليه ایتها الغادات الرحيمات ! »

وقالت احدهن : « « الصادات الرحيمات ! او سمعتم ؟
یالكالينيك من رجل جم الأدب ! يجب علينا ان ندله على الطريق الى
كوخه جزاء أدبه ، ولكن مهلا ! ولتتحفنا أولا برقصة »

وقال كالينيك فى بطء وثاقل وهو یضحك ويهز اصبعه اليهن :
« رقصة ؟ يا لكن من فتيات ماكرات ! » ، ثم خطا الى الامام
مترنحا ، فقد كانت ساقاه أعجز من ان تحملاه فى ثبات ، ومضى
یقول : « وهل لى ان اقبلكن جميعا اذا رقصت ؟ لأقبلكن جميعا ،
اجل كل واحدة منكن » وجرى وراءهن فى خطا مترنحة ، فأطلقت
الفتيات صرخة ، ثم للذن جميعا بعضهن ببعض ، ولكنهن ادركن ان

كالبنيك لا يستطيع ان يجرى على قدميه بالسرعة المطلوبة ، فازددن جراً ، وركضن الى الجانب الآخر من الطريق .

وصحن به وهن يتبعن مشيرات الى كوخ اكبر كثيرا من سائر الاكوخ « هاك كوخل ! » ، وكان ذلك الكوخل هو كوخ رأس القرية ، واطاعن كالبنيك ، وانعطفن فى ذلك الاتجاه ، وانطلقن يذمن رأس القرية مرة اخرى .

ولكن من يكون هذا الراس الذى اثار مثل هذه الانتقادات والآراء القبيحة ؟ الحق انه كان شخصا ذا شأن فى القرية ، ولاشك اننا نستطيع ان نستغل الوقت الذى يمضى فيه كالبنيك الى كوخه ، ونقول عنه كلمة : كان جميع القرويين يخلعون قبعاتهم عندما يرونه ، وكانت الفتيات ، حتى اصغرهن سنا ، يحيينه تحية الصباح واى فتى لا تتوق نفسه الى ان يكون رأس القرية ؟ لقد كان رأس القرية هذا مطلق التصرف يستطيع ان يصيب من سعوط اى امرىء ما يصيب ، وكان الفلاح القوى يقف له باحترام وقبعته فى يده ، ويمضى شيخ القرية متحسسا صندوق سعوطه المصنوع من لحاء شجر البتولا بأصابعه المكتنزة ، وكان رايه دائما هو الأعلى فى مجلس القرية ، وان كان سلطانه لا يتعدى بضعة أصوات ، وكان له الحق وحده تقريبا أن يرسل من يشاء لتمهيد الطرق واصلاحها او حفر الخنادق . وكان الرجل عبوسا كالح الوجه مقتصدا فى الحديث. وقد حدث منذ زمن بعيد ، بعيد جدا عندما كانت القيصرة كاترين العظمى طيب الله ثراها ، قاصدة الى بلاد القريم أن اختير مرشدا لها .

واذى رأس القرية مهمته هذه يومين كاملين ، بل عد اهلا لأن

يجلس على المقعد بجوار حوذى القيصرة ، وقد الف منذ ذلك الحين ان يحنى رأسه فى حركة يشيع فيها الوقار والتأمل وان يربت شاربه الطويل المسترخى ، ويرمق الناس من تحت حاجبيه بنظرات كمنظرات الصقر . ومنذ ذلك الحين أيضا كان شيخ القرية يدير دائما دفة الحديث بمهارة مهما كان الموضوع المطروح على بساط البحث ، مصطنعا الطريقة التى كان يوجه بها القيصرة ، ويجلس بها على مقعد الحوذى من عربتها . وكان يحب أحيانا ان يتظاهر بالصمم ، وخاصة اذا سمع شيئا لايجب ان يسمعه ، وكان الرجل لا يطيق الحدلقة ، يرتدى على الدوام سترة طويلة من نسيج أسود من غزل المنازل ، ويتمنطق دائما بحزام من الصوف الملون ، وما من أحد شاهده قط فى أى زى آخر الا حين ارتحلت القيصرة الى القرية ، فقد ارتدى فى تلك المناسبة شملة قوزاقية زرقاء داكنة . وكان من العسير أن يذكر أحد فى القرية ذلك الزمن ، أما الشملة فلا يزال يحتفظ بها فى صندوق .

وقد كان رأس القرية هذا أرملة ، ولكن أخت زوجته كانت تقيم معه فى المنزل ، وكانت تطهو له الغداء والعشاء وتنظف الأرائك وتبيض الكوخ بالجير ، وتنسج له القمصان وتعنى بالمنزل . وقد زعم ناس فى القرية انها لم تك أخت زوجته قط ، ولكننا قد تبينا وشيكا ان الكثيرين كانوا يضمرون الشر للشيخ ، وكان يسرهم ان يشيعوا عنه شائعات السوء ، على ان هذه الشائعات ربما كانت تنسب بشيء من الصحة ، فقد لوحظ ان أخت زوجته كان يبدو عليها الاستياء كلما خرج الى حقل فيه حشد من الفتيات يحصدن ، او ذهب لزيارة قوزاقى له ابنة جميلة . ولم تك للشيخ الا عين

واحدة ، ولكن تلك العين كانت له بمثابة الداهية الأريب تستطيع ان تلمح الفتاة القروية الجميلة على بعد شاسع ، على انه لم يك يحرق بها في وجه مليح فاتن الا بعد أن يتلفت جيدا ليرى هل كانت أخت زوجته تراقبه؟ وهانحن أولاء قد قلنا عن شيخ القرية كل ماتقتضينا الحال ان نقوله تقريبا ، في الوقت الذي كان فيه كالينيك الثمل يسير في طريقه الى كوخه . وكان الرجل لا يزال ماضيا على سنته ينتقى خير النعوت يصف بها شيخ القرية بقدر ما كان يسمح له لسانه البطيء الثقيل .

غريم مفاجيء

مكية

وقال ليفكولرفاقه الذين استخفهم المرح وأرادوا منه ان يشاركهم في ضروب جديدة من اللهو : « كلا أيها الرفاق ! كلا ، لن أشارككم في لهوكم ! أما زلتم تطلبون اللهو؟ واعجبا ! ألم يكفكم ما أحدثتم من ضر ؟ ان الناس يقولون ، علم الله ، اننا سفلة اوغاد على قدر مارأوا منا حتى الآن ، وقد كان أولى بكم ان تأووا الى فراشكم ! وداعا أيها الرفاق ! وطابت ليلتكم ! » ، ثم سار يضرب في الشارع بخطا سريعة .

وتساءل وهو يقترب من الكوخ الذي فيه اشجار الكرز وقد مر بنا وصفه : « ترى هل اخلدت حبيبتى حنة المشرقة العين الى النوم ؟ » ، وكانت أصوات خفيضة تترامى الى السمع وسط هذا السكون . ووقف ليفكو مكانه ، وكان يستطيع ان يرى قميصا أبيض من خلال الشجر ، وتساءل قائلا : « مامعنى هذا ؟ » . ثم اقترب قليلا وهو يتلصص واختبأ خلف شجرة ، وكان وجه الفتاة التى وقفت امامه يتألق في ضوء القمر . لقد كانت هى حنة ! ترى من يكون هذا الرجل الطويل الذى كان يوليه ظهره ؟ وحدق فيه النظر محاولا معرفته ، فذهبت محاولته ادراج الرياح ، ذلك ان الظلال

كانت تفره من قمة رأسه الى اخصص قدمه ، اللهم الا بعض الضوء كان يلقي عليه شعاعا من الأمام ، ولو قد خطا ليفكو أقل خطوة الى الأمام لتعرض للخطر من ان يكتشف أمره ، فاستند الى الشجرة في هدوء وسكون واستقر رايه على ان يبقى حيث هو ، وهتفت الفتاة باسمه في وضوح ، فغمم الرجل الطويل من بين أسنانه يقول في صوت أجش : « ليفكو ؟ ان ليفكو لمخنت ، ولو اننى شاهدته معك لنزعت قنزعتة من جلد شعره ! »

وتمتم ليفكو يقول في صوت خافت : « بودى ان أعرف ذلك الوغد الذى يقول مفاخرا انه سينزع قنزعتى من جلد شعرى ! » ، ومد عنقه محاولا الا تفوته كلمة واحدة ، ولكن الغريب واصل حديثه في صوت خفيض جدا فلم يستطع ليفكو ان يسمع كلمة واحدة مما يقول .

وقالت حنة عندما فرغ الرجل من حديثه : « الا تخجل من نفسك ؟ انك تكذب ، وتخدعنى ! انك لا تحبنى ، ولن أصدق أبدا انك تحبنى ! »

ومضى الرجل الطويل القامة في حديثه قائلا : « انى لأعلم ان ليفكو قد التى على مسامعك هراء كثيرا ، فأدار رأسك » ، وخيل الى الشاب عندئذ ان هذا الصوت لم يكن غريبا على أذنه كل الغرابة ، وبدا انه قد سمعه من قبل ، واسترسل الغريب يقول باللهجة نفسها : « لأرين ليفكو من أى معدن صنعت ! انه يظن اننى لا أدرك الاعيبه الشهوانية ، وليذوقن هذا الوغد الصغير طعم قبضة يدى ! »

وما ان سمع ليفكو هذا حتى عجز عن ان يكبح جماح غضبه ،

فخطا ثلاث خطوات ، وطوح قبضة يده ليلطمه لطمه على أذنه قد تقذف به في الهواء على الرغم مما كان يبدو عليه من القوة والياس، الا ان ضوء القمر اضاء وجه الفريب في تلك اللحظة ، وعقدت الدهشة لسان ليفكو ، اذ رأى اياه واقفا امامه ، واهتزت رأس ليفكو على غير وعى منه ، وسمعت حنة حفيفا ، فانفلتت الى الكوخ، وصدقت الباب وراءها ! »

وصاح أحد الشبان في تلك اللحظة متسللا ، وطوق شيخ القرية بذراعه « طابت ليلتك يا حنة ! » ثم صادفت يده شارب الشيخ الخشن ، فترجع مذعورا .

وصاح شاب آخر: « طابت ليلتك يا فاتنتى ! » ، الا ان الشيخ دفع هذا الشاب دفعة قوية قذفت به في الهواء .

وصاح عدد من الشبان متعلقين بعنقه : « طابت ليلتك ، طابت ليلتك يا حنة ! »

وصاح الشيخ وهو يدفعهم عنه ويركلهم بقدمه : « اليكم عنى ايها المستهترون الملاعين ! احقا تطلبون حنة ! اذهبوا ، ولتسئفوا انتم وآباؤكم يا اولاد الشيطان ! انهم يتساقطون على المرء تساقط الذباب على الشهد ! تالله لاؤدبنكم ! »

وصاح الشبان : « انه شيخ القرية ! انه الشيخ ! » ، وتفرقوا شذر مذر ! ..

وقال ليفكو ، وقد افاق من دهشته ، واخذ يشبع الشيخ بنظراته وهو يعتمد صابا لعناته : « اذن فهذا هو أبى على حقيقته ! وتلك هى الحيل التى ينسج خيوطها ! يا له من امر طريف ! وقد كنت

اسئال : « لم يتظاهر بالصمم في كل مرة أهم فيها بالحديث في الموضوع ؟ انتظر قليلا أيها التيس ! لأعلمنك كيف تكون عاقبة التسكع تحت نوافذ الحسان ! أجل ، لأعلمنك كيف تكف عن غواية حبيبات غيرك من الرجال ! » ، ثم صاح ، ملوحا بيده الى الشبان وكانوا قد اجتمعوا زمرة واحدة مرة أخرى : « ايه أيها الرفاق ! تعالوا هنا ، تعالوا هنا ، من هذا الطريق ! تعالوا هنا ! لقد حاولت ان احملكم على الايواء الى فراشكم ، ولكنى عدلت الآن عن رأبي ، واني على استعداد ان الهو معكم الليل بطوله »

وقال شاب بدين عريض المنكبين كان يعد أكثر فتيان القرية مرحا وأشدهم ميلا للأذى : « هكذا يكون الكلام ! واني لأشعر دائما بالسأم اذا عجزنا عن ان ننعّم بقدر مناسب من اللهو ، بل احس دائما كأننى قد فاتنى شيء ، أجل ، كأننى فقدت قبعتى أو غليونى ، والحق ان هذا ليس من شيمة القوزاق ! »

« ما قولكم في ان نهز شيخ القرية هذا ؟ »

« شيخ القرية ؟ »

« أى نعم ، ما حسب هذا الرجل ؟ وماذا يظن في نفسه ؟ انه يحكمنا كما لو كان زعيما من زعماء القوزاق ، ولا يكفيه ان يعاملنا كما لو كنا بعض عبيده ، بل يجرى أيضا وراء حبيباتنا ، ولا اعتقد انه ترك حسناء واحدة في القرية بأسرها ألا غازلها »

وصاح الفتيان : « هذا صحيح ! هذا صحيح ! »

« أعبيده نحن أيها الفتيان ؟ السنّا من طينة واحدة سواء بسواء ؟ نحمد الله ، فما نحن الا قوزاق أحرار ، ولنرينه أيها الرفاق اننا قوزاق أحرار ! »

فصاح الفتیان : « لئرينه هذا ! اما وقد صح عزمنا على ان
نشن الفارة على الشيخ فلن نرحم كاتبه ايضا ! »

« لن نرحم الكاتب ! ولقد فرغت لتوى من وضع اغنية رائعة
تنطبق على الشيخ كل الانطباق » ، ثم مضى ليفكو يقول وهو يضرب
على أوتار بندورته : « هلموا بنا ، ولاعلمنكم الاغنية ، ولترتدوا من
الملابس ما يقع في ايديكم ! »

وقال الشاب القوي المتهور وهو يضرب قدما بقدم ويصفق بيديه:
« هلموا ايها القوزاق الشجعان ، يا للمجد ! ويا للمتعة ! ان المرء
اذا أخذ نفسه بشيء من اللهو أحس كأنه يحتفل بالسنوات الخوالي
فيفيض قلبه بالبشر، ويخلو باله من الهم وبدا له كأن روحه انطلقت
الى الفردوس ، هلموا ايها الرفاق ، هلموا بنا ننعم بشيء من اللهو!»
وسار الجمع صاحباً مضمضياً يجتاز الطريق ، واستيقظت عجائز
النسوة الصالحات من نومهن على صياح الفتیان ، وأغلقت نوافذهن ،
ورسمن اشارة الصليب والنوم يداعب جفونهن ، ثم قلن : « وى !
لقد شرع الفتیان يمرحون ! »

الفتيان يمرحون

لم يبق في القرية أكوخ مضاءة الا كوخ واحد في طرفها هو كوخ شيخها ، وكان الرجل قد فرغ من تناول عشاءه منذ وقت طويل ، ولاشك انه كان حريا بان يكون مستسلما للنوم في مثل هذه الساعة لولا ان زائرا كان قد ألم به ، فقد أرسل صاحب ملك له قطعة صغيرة من الأرض بين املاك القوزاق الاحرار هذا الرجل ليقيم على هذه القطعة معملا لتقطير الخمر، وكان الزائر رجلا قلة بدينا قصير القامة له عينان صغيرتان لا تكفان عن الابتسام ، والظاهر انهما كانتا تعبران عما يحس به من سرور حين يدخن .

وجلس الزائر في مكان الشرف تحت الايقونات ، وقد دأب على البصق وعلى ان يضغط بابهامه رماد التبغ الذي ظل يتساقط من غليونه القصير ، وأخذت سحب الدخان تنتشر بسرعة من فوقه وشملته بضبابة زرقاء داكنة حتى بدا كأنه مدخنة كبيرة لمعمل من معامل تقطير الخمر ملت البقاء على سقفه ، وظنت انها في حاجة الى تغيير، فاتخذت المكان اللائق بها في كوخ شيخ القرية . وبرز شارب كث قصير من تحت انف الزائر ، على ان معاله لم تتضح في هذا الجو المشبع بالدخان ، فبدا كأنه فار أمسك به مقطر الخمر وقبض عليه بغمه مفتاتا على القطن الذي ألف مخزن الحبوب .

وأحس شيخ القرية بأنه ملازم بيته ، فجلس مرتديا قميصه وسروالا من الكتان ، وكان يزر عينه الشبيهة بعين النسر رويدا رويدا ، فيخمد بريقها خمود الشمس الغاربة . وكان أحد شرطة القرية « كونستابل » الذى يساعد شيخها ، يدخن غليوناً في طرف المنضدة ، وكان لا يزال يرتدى شملته احتراماً لمضيفه .

وسأل الشيخ مقطر الخمر ، وهو يرسم إشارة الصليب على قمه بعد ان تشأب : « أتتوى إقامة معمل تقطير الخمر فى وقت قريب؟ »
« ربما بدأنا التقطير بعون الله فى اغسطس ، وانى لأراهن على انه ما أن يحل عيد الشفاعة حتى يكون شيخنا المحترم ماضيا فى لعبة الكلمات المتقاطعة يخط رقعتها بقدميه فى الطريق » .

واختفت عينا مقطر الخمر عن الأنظار وهو ينطق بهذه الكلمات، وبدت فى مكانها تجاعيد امتدت حتى أذنيه ، واهتز جسمه كله من سدة الضحك ، وتركت شفتاه المرحتان الغليون لحظة .

وقال مضيفه ، مقطبا وجهه فيما يشبه الابتسامة : « أرجو من الله ذلك ، وانى لأحمده الآن على ازدياد معامل تقطير الخمر بعض الزيادة ، فقد حدث منذ سنوات ، عندما كنت دليلا للقيصرة فى طريق بيرياسلاف ، ان بيزبورودكو ، رحمة الله عليه ... »

« ايه يا صديقى العزيز! ما بالك تذكر تلك الأيام ، وى ! لم يكن يقوم فيما بين كريمينشوج ورومنى الا معملان لتقطير الخمر فى تلك الأيام ، أما فى يومنا هذا .. ترى هل سمعت بما ينتوى الألمان الملاحين فعله ؟ انهم سيعدلون عن حرق الخشب فى معامل تقطير الخمر كما يفعل المسيحيون من أهل الرزانة والوقار ، وسيستبدلون به فى

وقت قريب نوعا من البخار الشيطاني ، على ما يقولون ! » ، ونظر
مقطر الخمر ، وهو يقول هذا ، الى المنضدة والى يديه المستندتين
عليها ، في تأمل وتفكير ، ومضى يقول : « لا أستطيع أن أتصور كيف
يدور المعمل بالبخار ! »

وقال شيخ القرية : « يا لغباوة هؤلاء الألمان ، وليغفر الله لي !
وددت لو جلدتهم ، اولاد الشيطان ! أو قد سمع أحد بمثل ما
يقولون من غلى شيء بالبخار ؟ لو صدق هذا ما استطعت ان تناول
ملء ملعقة من الماء الا اذا الهبت شفتيك كالخنزير الرضيع » .

وقالت أخت زوجة الشيخ ، وهي تجلس على أريكة الموقد متربعة :
« وانت أيها الصديق ، أو تبقى هذا الوقت كله من غير زوجتك ؟ »
« وى ! وما حاجتى اليها ؟ لو كانت تستحق لاختلف الامر »

وسأله الشيخ وهو يحدهج بعينه الواحدة : « اليست بهية
الطلعة ؟ »

« بهية الطلعة حقا ! انها عجوز كالشيطان نفسه ، أما وجهها فقد
امتلا بالتجاعيد كانه الكيس الخاوى »

واهتز مقطر الخمر القصير البدين بالضحك حتى شمل كيانه كله .
وفى تلك اللحظة اخذ شيء يتحسس الباب ، ثم انفتح الباب
واجتاز العتبة فلاح دون ان يخلع قبعته ، ووقف في وسط الكوخ
مترددا ، وقد ففر فاه واخذ يحملق في السقف ، وكان هذا الفلاح
هو صديقنا كالينيك .

وقال كالينيك وهو يستوى على الأريكة قرب الباب غير آبه بالجماعة :
« هانذا قد عدت أخيرا الى دارى ، لقد اطال الشيطان ريبب الشر

الطريق ! أجل اطاله حتى ليسير المرء فيه ويسير فلا يبلغ نهايته !
ايه ، انى لاشعر كان احدا كسر ساقى . ايتها الزوجة ، انتى بجلد
الماعز وافرشييه لى ، فلست بجالس معك على الموقد ، أجل لن أفعل
ذلك ، فان ساقى تؤلمنى ، ابحشى عنه ، انه هناك تحت الأيقونات .
ولكن حذار أن تقلبى القدرالتي فيها السعوط ، بل كفى . . لاتلمسيه
لاتلمسيه ! فربما كنت ثملة الليلة . دعيني آت به بنفسى ! »

وحاول كالينيك النهوض ، ولكن قوة لا قبل له بها جعلته يتسمر
في مقعده .

وقال شيخ القرية : « ما اعجب هذا ! رجل يدخل بيت رجل
آخر، ويلقى بالأوامر كما لو كان في بيته ! القوا به بقضه وقضيضه
خارج الدار ! »

وقال مقطر الخمر وهو يجذبه من ذراعه : « دعه يسترح أيها
الصديق ! انه لرجل نافع ، ولو قد أكثر الله من امثاله لراجت
سوق معمل تقطيرنا ! »

ولم تكن سماحة الطبع هى التى حملت مقطر الخمر على قول ما
قال ، ذلك انه كان متطيرا يؤمن بالخرافات على اختلاف أنواعها
وأشكالها ، ويعتقد ان طرد رجل اتخذ مجلسه بالفعل على أريكة يجرد
الويلات والمصائب .

وغمغم كالينيك وهو مستلق على الأريكة : « ترى ماذا يصيبنى
عندما اتقدم فى السن ؟ لو كنت ثملا ما ازعجنى الامر، ولكننى لست
ثملا ، أجل لست ثملا وأيم الحق ، ولم اكذب ؟ انى لمستعد ان
أصرح لشيخ القرية نفسه بهذا ، وماذا يهمنى من امر الشيخ ؟

وددت لو غص حلق هذا الكلب ! وانى لأبصق عليه ! ولشد ما
أتمنى ان تدهم عربة هذا الأعرور الملعون ! ما باله يفرق الناس بالماء
إبان الصقيع ؟ »

وقال الشيخ وهو ينهض من مقعده فى غضب : « اذن فقد شق
الخنزير طريقه الى الكوخ ، وهاهو ذا يضع قائمته على المائدة ! »
وفى تلك اللحظة سقط عند قدميه حجر ثقيل حطم النافذة تحطيمًا ،
فتوقف عن الكلام برهة ، ثم مضى يقول وهو يلتقط الحجر : « لو
كنت أعرف أى مجرم هذا الذى ألقى بالحجر لعلته الا يقذف
الناس بالحجارة ! » ، وأردف وهو ينظر الى الحجر الذى فى يده
بعمى يتطاير منها الشرر : « يا للأعيب ! وددت لو غص حلقه
بهذا الحجر ! »

فقال مقطر الخمر وقد شحب لونه : « كف يا صديقى ! عصمك
الله فى الدنيا والآخرة من أن تنعم على أحد بهذا السباب ! »

« هاكم بطلا ! لعنة الله عليه ! »

« انزع هذا من مخيلتك يا صديقى ! وانى لأحسب انك لم تسمع
بما أصاب المرحومة حماتى ؟ »

« حماتك ؟ »

« أى نعم ، فقد حدث ذات مساء ، وربما كان ذلك فى ساعة
أبدر قليلا من الساعة التى نحن فيها - ان كانت حماتى وحمى
وأجيرهما وأجيرتهما الفتاة وأولادها الخمسة يجلسون على مائدة
المساء ، وأخذت حماتى تهز بعض لقيمات القاضى مسقطه إياها من
القدر فى طاس لتبرد ، وكان الجوع قد عضهم جميعا بنابه بعد ان

فرغوا من أعمالهم ، فلم يصبروا على اللقيمات حتى تبرد ، وأقبلوا عليها بأعواد من الخشب طويلة يلتقطونها ويأكلونها ، ولاح لهم فجأة رجل لم يعرف أحد من أين هبط عليهم ولا من يكون الا الله .

« وطلب الرجل منهم ان يسمحوا له بالجلوس الى المائدة ، وما كان الطعام ليحرم على رجل جائع ، فأعطوه هو أيضا عودا من الخشب . الا ان الزائر التهم لقيمات القاضى كما تلتهم البقرة الدريس ، وأصاب كل من الآخرين لقيمة واحدة ، على حين أخذ الرجل يضرب بعوده بحثا عن غيرها ، واذا بالطاس أنظف من أديم الأرض في دار السيد الفاضل .

« وانزلت حماى بعض لقيمات أخرى من القدر ، وظنت ان الضيف قد أكل كفايته وانه سيلتهم هذه المرة أقل مما يلتهم ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد أخذ يلتهمها بأسرع مما التهم سابقتها حتى اتى على ما فى الطاس مرة أخرى ، فقالت حماى بينها وبين نفسها : « الا فليفص حلقك باللقيمات ! » ولم يلبث الرجل ان غص حلقه وسقط على الأرض ، فهرعوا اليه ، فوجدوه قد أسلم الروح ، ذلك انه كان قد اختنق » .

وقال شيخ القرية : « لقد نال جزاءه ذلك النهم الملعون ! »

« ربما كان القول ما قلت ، ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد ، فان حماى لم تذق طعم الراحة منذ ذلك الحين ، وما ان جن الليل حتى ظهر الميت ، فقد جلس هذا الفتى الملعون على المدخنة منفرج الساقين قابضا بأسنانه على لقيمة من اللقيمات وكان الهدوء ينشر ظلاله سحابة النهار فلا يسمعون عنه شيئا ، حتى اذا حل الغسق ظهر هذا الكلب جالسا على المدخنة ! »

« قابضا بأسنانه على اللقيمة ؟ »

« أجل ، قابضا بأسنانه على اللقيمة »

« ما أعجب ما تقول يا صديقي ! لقد سمعت بشيء من هذا القبيل

في عهد المغفور لها قيصرتنا ... »

وتوقف المتكلم عن الحديث ، فقد بلغ أسماعهم طرق أقدام ترقص
تحت النافذة ، وانبعثت البندورة أول الأمر تشدو شدوا رقيقا ،
ثم تلاها صوت يترنم ، وارتفع رنين الأوتار، واشتركت عدة أصوات
في الانشاد ، ثم علا الغناء كالعاصفة :

هل سمعتم أيها الفتيان آخر الأنباء ؟

راسنا « أي شيخنا » مختل العقل !

ان راسنا الأعور له رأس كالبرميل

تفككت الواحه !

فتمال يا صانع البراميل ودقه دقا

واحرمه باطواق من الصلب !

تمال يا صانع البراميل ودق الرأس بمطرتك

واضرب بعزيمة صادقة !

ان راسنا أعور ، اشتمل رأسه شيبا ،

انه عجزو ، عمره عمر الخطيئة نفسها . ويا لرأسه الأخرق

يزخر بالأهواء والأفكار الشهوانية

يفازل الفتيات هذا الغبي !

أيجوز لك ان تحاول تقليد الشبان ؟
وقد كان أولى بك أن تكون مسجى في قبرك
تلقى فيه من قفاك وسوالفك !
ومن قنزعتك التى تزهو بها وتتماجب !

وقال مقطر الخمر وهو يميل برأسه قليلا ، وبلتفت الى مضيفه
الذى كانت قد أذهلته الوقاحة الشديدة : « ما أعذب هذه الأغنية
يا صديقى ! ما أعذبها ! ومما يرثى له أنهم يتحدثون عن رأسهم بهذه
العبارات المهينة »

ثم وضع يديه على المائدة مرة أخرى ، وقد التمعت عيناه ببريق
الفرح والسرور ونهياً لسماع المزيد ، فقد كان يترامى الى الأسماع
من الخارج عاصفة من الضحك والضحك : « أعد ! أعد ! ». على
ان العين البصيرة كانت تستطيع أن ترى فى الحال ان الدهشة لم
تكن هى التى سمعت شيخ القرية فى مكانه ، ذلك ان السنور المحنك
ينتهج هذه الطريقة نفسها أحيانا ، فيدع الفأر القليل الخبرة يدور
حول ذيله ، ويروح هو يدبر خطة سريعة يقطع بها على الفأر سبيل
الرجوع الى جحره . وكانت عين الشيخ الواحدة لانزال تحديق
بالنافذة ، على حين كانت يده قد أمسكت بمقبض الباب الخشبى
بعد أن أوماً بها الى الشرطى ، ثم ارتفع صوت فى الطريق فجأة ،
وأسرع مقطر الخمر فملاً غليونه وهرع الى الخارج ، فقد كان حب
الاستطلاع صفة من صفاته العاطرة الكثيرة ، الا ان الفتيان الأوغاد
كانوا قد تفرقوا فى كل اتجاه .

وصاح شيخ القرية وهو يجر رجلا من ذراعه يرتدى جلد ماعز

مقلوبا : « هيهات ان تفلت منى ! »

وانتهز مقطر الخمر هذه الفرصة وجرى ليلقى نظرة على هذا الذى عكر صفو الامن ، ولكنه تراجع مدعورا ، اذ شاهد لحية طويلة ووجها مخيفا علاه الطلاء وصاح الشيخ : « هيهات ان تفلت منى ! » واخذ يجر الى المنزل اسيره الذى لم يك ييدى اية مقاومة ، بل كان يتبعه فى هدوء كما لو كان ذاهبا الى كوخه ، وقال الشيخ للشرطى : « افتح المخزن ياكاريو ، ولنحبسه فى المخزن المظلم ، ثم نوقظ الكاتب ونجمع الشرطة ، ونقبض على هؤلاء الصاخبين كافة ، ونصدر عليهم جميعا حكما الليلة ! »

وأولج الشرطى مفتاحه فى قفل صغير ، فصلصل وفتح المخزن ، وانتهد الأسير فى تلك اللحظة فرصة الظلام ، فأتى بمجهود عنيف تخلص به من قبضته .

وصاح الشيخ وهو يشدد قبضته على بنية ثوبه : « الى أين ؟ » فصرخ صوت رفيع مجلجل قائلا : « دعنى ! فاننى انا من تعلم ! » « لن يجديك هذا شيئا يابنى ، ولتصرخ كالشيطان او كالمرأة ، ولكنك لن تخذعنى » ، ودفعه الى المخزن المظلم دفعة ، فتأوه الأسير المسكين ، وخر على الأرض ، واصطحب شيخ القرية الشرطى وقصد الى كوخ الكاتب ، يتبعهما مقطر الخمر وهو ينفخ كما تنفث الباخرة دخانها .

وسار ثلاثتهم وقد أرخوا ابصارهم ، واستغرقوا فى التفكير ، واذا بهم يصرخون جميعا صرخة رجل واحد فى منعطف بزقاق مظلم ، فقد أصابتهم لكمة عنيفة على جباههم ، ورجع الصدى صوت صرخة

مماثلة ، وزر شيخ القرية عينه فرأى ، والدهشة تملكه ، الكاتب
ومعه شرطيان .

« لقد كنت قادما لرؤيتك أيها الكاتب المحترم ! »

« وأنا كنت قادما للقاء سيادتكم أيها الشيخ الموقر ! »

« ان أمورا عجيبة تقع أيها الكاتب المحترم ! »

« غاية في العجب أيها الشيخ الموقر ! »

« عجبا ! وأى أمور تعنى ؟ »

« لقد جن جنون الفتيان ، وهم يسرون في الطرقات عصابات كاملة
على نحو شائن معيب ، ويصمون سيادتكم بعبارات يمنعنى الخجل من
ترديدها . ان المسكوفى الثمل لا يطاوعه لسانه القدر على النطق بهذه
العبارات » وكان الكاتب الهزيل الذى ارتدى سروالا من الكتان المنقط
وصديريا يحاكى في لونه ثفالة النبيذ ، يقول هذا كله وهو يمد عنقه
حينما ويرده الى مكانه حينما آخر . « وكنت قد استسلمت للنوم
وشيكا عندما أيقظنى هؤلاء الأوغاد الملاعين بأغانيمهم المخزية وطرقهم
على الباب ، وكان فى نيتى أن أنزل بهم الجزاء الرادع لولا أنهم هربوا
جميعا وأنا مشغول بارتداء سروالى وصدارى ، على أن زعيمهم لم
يقلت ، فهو يشدو الآن فى الكوخ الذى نحبس فيه المساجين . ولقد
كنت متلهفا الى معرفة أى صنف من المجرمين هذا الذى قبضنا عليه ،
لولا ان وجهه قد غشيه السواد كله فأصبح كوجه الشيطان الذى يضع
المسامير لاهل المعصية » .

« وكيف كان لباسه أيها الكاتب المحترم ؟ » .

« كان يرتدى جلد الماعز مقلوبا أيها الشيخ الموقر » .

« أو تكذب أيها الكاتب المحترم ؟ وما قولك فى أن هذا الوغد يجلس
الآن فى مخزنى ؟ » .

« كلا أيها الشيخ ، واننى لاحسب ان الامر قد التبس عليك بمض الشيء ، ولست اقصد بذلك ان أسىء اليك » .
« على بمصباح ! ولنلق عليه نظرة » .

وجىء بالمصباح ، وفتحوا الباب وصرخ شيخ القرية صرخة تنم عن الدهشة اذ رأى امامه أخت زوجته . وانهالت عليه المرأة تقريبا :
« بالله خبرنى ، أو فقدت تلك المسكة من العقل التى لم يكن لك قط غيرها ؟ وهل كان فى رأسك ذى العين الواحدة ذرة من بصيرة عندما دفعتنى الى المخزن المظلم ؟ لقد كان من حسن حظى ان رأسى لم يرتطم هو والخطاف الحديدى ، ألم أصرخ فيك باننى أنا من تعلم ؟ الا تبالك أيها اللب الملعون ، لقد قبضت على ببرائك الحديدية ودفعتنى الى داخل المخزن ، فلتجزينك الأبالسة الجزاء نفسه فى العالم الآخر ! » .
ونظقت المرأة بالكلمات الاخيرة وهى فى الطريق ، ذلك انها كانت قد خرجت لبعض شأنها .

فقال شيخ القرية متمالكا زمام نفسه : « اجل ، أرى انك انت هى . ما قولك أيها الكاتب المحترم ؟ اليس ذلك التيس وغدا ما كرا ؟ »
« انه لوغدا ماكر أيها الشيخ الموقر » .

« ألم يحن الوقت بعد لتلقى على هؤلاء الأوغاد جميعا درسا قاسيا ، ونحملهم على العمل ؟ » .

« لقد حان الوقت أيها الشيخ الموقر » .

« لقد ظن هؤلاء الحمقى – ترى ماذا هناك ؟ يخيل الى اننى سمعت صوت أخت زوجتى تصرخ فى الطريق – لقد ظنوا انهم مثلى سواء بسواء ، اجل ظنوا اننى واحد منهم ، لا أعدوا ان اكون قوزاقيا من غمار القوزاق ! » . وبدا من تلك التضححة التى أطلقها الشيخ عقب

هذه الكلمات والطريقة التي رفع بها بصره من تحت حاجبيه انه كان بهم بالحديث في أمر ذي شأن .

« لقد حدث في السنة السابعة عشرة ... وأنا لا أستطيع أن أتذكر ابدا تلك التواريخ المربكة - ان صدر الامر الى ليدائشي الذي كان وقتئذ يلي منصب الأمور ، بأن يختار من القوزاق أنجبهم جميعا ، آه ! » ، ونطق « بآه » هذه وقد رفع أصبعه في الهواء : « أجل ! انجب القوزاق جميعا ليؤدي مهمة الدليل للقيصرة ، وكنت في ذلك الوقت ... » .

« صدقت أيها الشيخ الموقر ، واننا لنعلم هذا جميعا ، أجل نعلم كيف نلت الحظوة لدى القيصرة ، ولتسلم الآن بأنى كنت على حق ، فقد حملت نفسك وزرا عندما قلت : أنك قبضت على ذلك الوغد الذي يرتدى جلد الماعز الأسود » .

« اما بخصوص ذلك الشيطان الذي يرتدى جلد الماعز الأسود ، فلنقيده بالاعلال ، ونماقيه عقابا شديدا حتى يكون عبرة للآخرين ! وليعلموا معنى السلطان ! فمن الذي يولى رأس القرية ان لم يكن هو القيصر نفسه ؟ ثم لنقبض على الشبان الآخرين ، فانى لم أنس أن هؤلاء الأوغاد الملاحين ساقوا قطيعا من الخنازير الى حديقة خضراواتى فأتى على جميع ما فيها من كرنب وخيار ، ولم أنس أن أولاد الشيطان هؤلاء قد رفضوا ان يدرسوا قمحى ، ولم أنس ... ولكن لعنة الله عليهم جميعا . يجب أن اكشف عن حقيقة ذلك الوغد الذي يرتدى جلد الماعز مقلوبا ! » .

وقال مقطر الخمر : « انه فيما يبدو مجرم ذاهية ! » ، وكانت وجنتاه اثناء هذا الحديث كله يغشاهما الدخان باستمرار وكانهما مدفع حصار ، واخذت شفاته ، بعد أن خلنا الفليون القصير ، تنفثان سيلا من

الدخان حقا ، ثم اردف يقول : « ولن نخسر شيئا اذا اقمنا الفتى
بالعمل فى مصنع التقطير ، وافضل من هذا ان نعلقه فى قمة شجرة
سنديان بدلا من البخرة » .

ولم تبد هذه الملحة سخيفة كل السخافة فى عين مقطر الخمر ، ولم
ينبث ان صح عزمه على ان يكافئ نفسه عليها بضحكة خشنة دون ان
ينتظر موافقة الآخرين ! .

وكان القوم قد اشرفوا فى تلك اللحظة على كوخ صغير اوشك ان يخترق
على احد جانبيه ، وازداد اصحابنا فضولا وتكاثروا جميعا حول الباب ،
واخرج الكاتب مفتاحا ، وراح يلم بالقفل مصلصلا ، فتبين انه مفتاح
سندوقه ، وعيل صبر الجماعة ، ثم دس الكاتب يده فى جيبه
متحسسا المفتاح ، ولكنه لم يعثر عليه فأخذ يسب ويلعن .

وهتف آخر الأمر : « ها هو ذا ! » ، وانحنى يضرب فى اعماق
جيبه الرحب الذى كان قد زود به سرواله الذى شاعت الوكت فى
رفعته كلها ، محاولا اخراج هذا المفتاح ، وما ان نطق الكاتب بعبارته
الآخيرة حتى بدا ان قلوب اصحابنا قد امتزجت جميعا واصبحت
قلبا واحدا اخذ يدق بقوة حتى ان صرير القفل نفسه لم يستطع ان
يطغى على صوت دقاته المضطربة ، وانفتح الباب ، وشحب وجه شيخ
القرية حتى غدا كالملاء البيضاء ، وشعر مقطر الخمر برعدة باردة
تسرى فى وصاله ، ولاح ان شعر راسه قد وقف فى الهواء ، وارتم
الرعب على محيا الكاتب ، وتسمر رجال الشرطة فى مكانهم ، وعجزوا عن
اغلاق افواههم التى كانت قد انفجرت فى وقت واحد ، ذلك انهم
وجدوا اخت زوجة شيخ القرية واقفة امامهم ! .

ولم تكن المرأة على كل حال اقل دهشة منهم ، الا انها تماكنت

نفسها ، ثم اتت بحركة كما لو كانت تريد أن تدنو منهم .

وصاح الشيخ صيحة وحشية : « مكانك ! » ، وصفق الباب فى وجهها ، ثم مضى يهتف : « أيها السادة ، انه الشيطان ، الى بمصباح ، وعجلوا ! لن أفلت هذا الكوخ ولو كان ملك القيصر نفسه ، أشعلوا فيه النار ، أشعلوا فيه النار ، حتى لا تتركوا من عظام الشيطان نفسه شيئا على الأرض » .

وصرخت أخت زوجته فرعا وهى تسمع من خلال الباب هذا الحكم المشؤم .

وصاح مقطر الخمر : « ما هذا الذى تريدون ان تفعلوه أيها الأصدقاء ؟ ان شعركم والحمد لله قد اتى عليه الشيب أو كاد ، ولكنكم لم تؤتوا الحكمة بعد . ان الساحرة لا تحترق بالنار المألوفة ! وانما نار الغليون هى التى تحرق من يتقمصه الشيطان ! فاصبروا قليلا ولن تنقضى لحظة حتى أعد للأمر عدته ! » .

وما أن فرغ من قوله حتى نفض بعض الرماد الحامى من غليونه على حزمة من القش وراح ينفخ فيها ، وكانت المرأة المسكينة قد غلبها اليأس على أمرها فى هذه الأثناء ، فانبعثت ترفع عقيرتها تبتهل اليهم وتتوسل .

وقال الكاتب : « انتظروا أيها الأصدقاء ، لماذا نحمل أنفسنا وزرا فى غير مقتض ؟ ربما لا تكون هى الشيطان ، ولئن رضى هذا المخلوق الذى يجلس هناك أيا كان شأنه بأن يرسم اشارة الصليب ، كان ذلك بينة لا تنقض على أنه لا يمت للشيطان بسبب » .

وصادف هذا الاقتراح القبول لدى الجماعة .

وقال الشيخ وهو يلتفت وراءه كأنه يبحث عن ملجأ أمين يلوذ به اذا اضطره الأمر الى التراجع : « ارسى علامة الصليب ! » .

ورسمت المرأة علامة الصليب .

« يا لعنة ! انها اخت زوجتى حقا ! » .

« اى روح شريرة تلك التى رمت بك الى هذا الجحر يا اختاه ؟ » .

وقالت المرأة للقوم وهى تنتحب ان الفتيان قبضوا عليها فى الطريق على الرغم مما اظهرته من مقاومة ، ودفعوها دفعا الى الكوخ من نافذته العريضة ، ثم سمروا مصراع النافذة . ونظر الكاتب الى النافذة فاذا بالمسامير التى فى عرى المصراع العريض قد نزعت من مكانها ، وثبت المصراع بلوح من اعلاه .

وصاحت المرأة وهى تمضى نحو شيخ القرية فتراجع مترنحا وكان لا يزال يحدجها بعينه الواحدة : « يا لك من داهية اياها الشيطان الاعور ! ان حباتك لا تخفى على ، فقد كنت تريد ، بل يسرك ، ان احترق بالنار ، حتى تغدو حرا طليقا تجرى وراء الفتيات ، ولا يرى احد الجذع المجوز الذى اشتعل رأسه شيئا يمرح ويلهو . اتظن اننى لا أعلم ماذا كنت تقول لحنة هذا المساء ؟ انى لآعلم كل شىء عن ذلك ، وليس خداعى بالأمر اليسير ، فما بالك اذا كان من يروم خداعى غرا أبله مثلك ، اننى لآتحلى بفضيلة الصبر ، فاذا نفذ صبرى فلا تلومن الا نفسك ! » .

وما أن فرغت المرأة من قولها هذا حتى هزت قبضتها فى وجهه ، وسارت مهرولة تاركة الشيخ فى حيرة من أمره .

وقال الشيخ يحدث نفسه وهو يحك رأسه حكاً قويا : « لا شك ان للشيطان بدا فى ذلك » .

واقبل عليه رجال الشرطة فى تلك اللحظة وصاحوا قائلين : « لقد قبضنا عليه ! » .

وسألهم الشيخ : « على من ؟ » .

« ذلك الشيطان الذى يرتدى جلد الماعز مقلوبا » .

فصاح الشيخ وهو يقبض على ذراع الأسير : « دعوه لى ! فلستم الا قوما مجانيين ! وانما هذا الذى تمسكونه هو كالينيك الثمل ! » .

فاجاب الشرطة قائلين : « يا له من امر عجيب ! لقد وقع الشيطان فى ايدينا ايها الشيخ الموقر ! فاقبل الفتيان الملاحين والتفوا بنا فى الزقاق ، واخذوا يرقصون ويقفزون ويجذبوننا من ثيابنا ويخرجون لنا السننهم وينتزعونه من بين ايدينا ! لعنة الله عليه ! اما كيف وقعنا على هذا الغراب وضللنا عن الشيطان فعلم ذلك عند الله وحده! » .

فقال الشيخ : « بمقتضى السلطة المخولة لى وباسم المجتمع كله اصدر اليكم الامر بان تلقوا القبض على ذلك الوغد فى التو والساعة ، وعلى كل من تصادفونه فى الطريق ، وتأتوا بهم الى لانظر فى امرهم ! » .

فصاح بعضهم وهم يجثون على قدميه : « رحماك ايها الشيخ الموقر ! وليتك رايت وجوههم القبيحة ، لقد ولدنا وعمدنا ولكننا لم نر قط مثل هذه الوجوه البشعة ، وليهلكنا الله ان كنا من الكاذبين ، وهذا الذى حدث لا ينجم عنه الا الشر ايها الشيخ الموقر ، وقد يوقع هؤلاء الفتية فى قلب الرجل الطيب من الرعب ما لاتستطيع اية امرأة عجوز ان تمهد بشفائه منه » .

« الرعب حقا ! ترى ما الذى ترمون اليه ؟ اتعصون الاوامر ؟ انى لاحسب انكم ضالمون معهم تماما ! اتشقون عصا الطاعة ؟ ما خطبكم ؟ وما معنى هذا ؟ اعمدون الى الفتنة ؟ انتم انفسكم .. لأرفعن امركم الى الامور ! فى التو والساعة ! اتسمعون ؟ فى التو والساعة ! عجلوا ، عجلوا ولتسابقوا الريح ! ولتعلمن اننى .. ولتعلمن انكم .. » .

وهرولوا جميعا وقد ذهب كل منهم فى واد !

الطراء الغربية

كان المحرض على هذا الشعب كله يسير ببطء شطر البيت القديم وشرط البركة دون أن يزعجه الطراد أو تقلقه فرق البحث التي اطلقت في كل اتجاه ، وما من حاجة تدعوننا بعد الى القول بأن ذلك المحرض هو ليفكو ، وكان الفتى يمضى في طريقه وقد فك أزرار جلد الماعز الذى كان يرتديه ، وامسك بقبعته والعرق يتصبب من وجهه . وكانت غابة اسفندان تبدو مهيبة جليلة يفشاها الظلام الكئيب ، ويلم بها فحسب لالاء من ضوء القمر انتشر هنا وهناك ، وراحت البركة الساكنة تنضج ذلك الجوال المتعب بانفاس رطيبة منعشة تفرجه بالاخلاق الى ضفتها يستروح لحظة ، وكان السكون شاملا لا يتخلله الا تفريد البلابل فى الصميم من اعماق الغابة ، وسرعان ما ادرك الفتى نعاس لا يستطيع له دفعا ، فأغمض عينيه ، وبدأ الخدر يدب فى فى أعضائه الكليية ، ونكل رأسه ومال ، ثم هتف وهو يشد قامته ويفرك عينيه : « ويحى » لو أننى بقيت على هذه الحال لاستسلمت للنعاس فى مكانى هذا ! » .

وتلفت حوله فبدا له الليل أكثر بهاء وأعظم جلالا ، وامتزج ضوء القمر لالاء فاتن غريب لم ير له الفتى من قبل مثيلا قط ، واكتسى كل شىء حوله بضباب فى لون الفضة ، وغمر الأرض جميعا عبر

نوار التفاح وشذا الأزهار ، ينفحها الليل بعطره ، وأخذ الفتى ينظر مشدوها الى مياه البركة الساكنة التي انعكست عليها صورة قصر الريفي لشريف الناحية مقلوبة ، وقد تجلّى القصر في حلة من المهابة والجلال ، واستبدلت فيه النسوافذ والأبواب الزجاجية المشرقة بالمصاريع الكئيبة ، وتألّق بريق الأشياء المذهبة من خلال الألواح الزجاجية الشفافة ، ثم خيل اليه أن نافذة من نوافذ القصر قد فتحت فحبس أنفاسه وكف عن الحركة ، ولم يحول نظره عن البركة ، وبدا أنه يفوس الى أعماقها ، وإذا به يرى أول ما يرى مرفقا أبيض يظهر من النافذة ، ثم رأسا صغيرا فاتنا وعينين مشرقتين تتألقان فى رقة وعدوية من خلال خصلات الشعر الكستنائية الداكنة ، واطل الرأس من النافذة واستند على المرفق ، ثم رأى الفادة توميء ، برأسها ايماءة رقيقة .

لقد كانت تشير اليه ، وكانت تبتسم ، فأخذ قلبه ينبض ، وشرع الماء يهتز ، ثم أغلقت النافذة مرة أخرى ، وابتعد الفتى عن البركة فى بطء ، ونظر الى القصر ، فوجد المصاريع المظلمة مفتوحة ، والأبواب النوافذ الزجاجية تتألّق فى ضوء القمر فقال يحدث نفسه : « عجبى للناس : لا يستطيع المرء ان يصدق من أقاويلهم الا القليل ، انه لقصر جديد غض الطلاء كأنما نفّض الصانع منه اليدين بالأمس نفّضا ، وبعض الناس يقيمون فيه » . واقترب من القصر فى سكون ، فلم يسمع فيه نائمة ولا حسا ، وارتفع صوت البلابل الرائع تشدو بأنغامها الشجية حتى اذا خفت صوتها وغاب فى غمرة من الوبس والاشتهاء ، علا حفيف الجنادب وطنينها ، وانبعث من هذا الطائر او ذلك من طيور المستنقع صوت عميق ، وهو يضرب بمنقاره الزلق صفحة الماء المريضة ، وامتلأ قلب ليفكو بشعور عذب من السكينة والرحابة

والانطلاق ، فنغم بندورته وراح يمزف عليها ويشدو :

آه ، أيها القمر ، القمر الحبيب !

وانت ، يا نجمى المشرق الجبين !

تالقا واسكبا نوركما على الكوخ

ففيه تقيم فتاتى الجميلة !

وانفتحت النافذة فى ببطء ، واطلت الفتاة التى رآى صورتها منعكسة على مياه البركة ، وأخذت تنصت الى غناؤه فى امان ، وقد أوشكت أهدابها الطويلة أن تخفى عينيها ، واتشحت كلها بحلة بيضاء كالصفحة الناصعة أو كضوء القمر، اما جمالها فكان هو الروعة والفتنة والبهاء ! وضحكت الفتاة فجفل ليفكو .

وقالت فى صوت ناعم رقيق ، وهى تميل يراسها على جانب وتستر عينيها برموشها الوطف : « غن لى اغنية أيها القوزاقى الشاب ! » .

« اى اغنية تريدن ياغادتى الفاتنة ؟ » .

وسالت الدموع من عينيها وتحدرت فى ببطء على وجهها الشاحب. وقالت، وفى حديثها نبرات تبعث فى النفس من الأسى ما يعجز القلم عن وصفه : « أيها الشاب ، أيها الشاب ، ابحت لى عن زوجة أبى ! ولن احمل لك حقدا ، بل سأجازيك ، فأجزل لك العطاء وأسخو فى الاغداق عليك ، ان لى اكماما مطرزة بالحريير والمرجان والقلاند ، وسأهب لك حزاما مرصعا باللالىء ، وعندى ذهب أيها الشاب ، فابحت لى عن زوجة أبى ! انها لساحرة رهيبه ، عكرت صفو حياتى ، فلم أعرف طعما للراحة . لقد كانت تعذبنى ، وتحملنى على العمل كآية فتاة قروية تافهة الشأن . انظر لى وجهى تر انها توسلت

بسحرها اللدس ، فسلبت منه ورد الخدين ، وانظر الى عنقى الأبيض
تر الأتار الزرق القائمة لبرائنها الفولاذية باقية لا تمحى ولا تزول
ولا يرجى لى منها خلاص ! وانظر الى قدمى البيضاوين ، لقد
طوح بهما النوى ، ولكنهما لم تسرا على الأرض الرطبة والأشواك
الحادة ! وانظر الى عيني ، أجل انظر الى عيني ! لقد طمس البكاء
نورهما ، واظلمتهما غشاوة ! على بها أيها الشاب ، وهات لى زوجة
أبى ! ..

وخفت صوتها الذى كان قد ارتفع حتى تلاشى فى غمرة السكون ،
وانهمر الدمع على وجهها الشاحب ، فانفطر قلب الشاب أسى ورحمة،
وقال فى لهجة تجيش بالعاطفة : « انى لمستعد أن افعل أى شىء من
أجلك يا غادتى الفاتنة ! ولكن كيف أجدها ؟ وأين ؟ » .

فردت عليه مسرعة: « انظر ، انظر ، انها هنا ، انها على الضفة
تلعب مع اترابى العذارى بعض الألعاب ، وتستدفئ فى ضوء القمر ،
ولكنها مأكرة داهية ، فقد اتخذت لنفسها صورة الغادة الفريقة ، ومع
ذلك فانى أعلم ، بل احس بأنها هنا ، تضيق على المسالك ، وتكتم
منى الأنفاس ، وأنا لا أستطيع أن أسبح كالسمكة فى سهولة ويسر
بسببها ، وانما أغوص واهبط الى القساع كالمفتاح ، فابحث
عنها أيها الشاب ! » .

ونظر ليفكو شطر الضفة ، فرأى من خلال الضباب الفضى الرقيق
عذارى ينطلقن خفيفات كالطيف فى قمصان تحاكي المرح فى بياضها
الناصع تزيناها زنايق من زهر الوادى ، وقد زهت أعناقهن بالقلائد
الذهبية وعقود الخرز وقطع النقود ، ولكنهن كن شاجبات ، رقت
اجسامهن كأنها قلدت من سحابة شفافة ، حتى بدأ أن ضوء القمر
الفضى يتالق فى ثناياها ، ودنت العذارى منه رويدا رويدا يفنين

ويرقصن ، فيصل غناؤهن الى سمعه .

ثم همسن : « هيا بنا نلعب لعبة القراب وفراخ الدجاج » ، وكان صوتهن كصوت قبلة تطبعها شفتا النسيم الاثرية على اغصان الغاب النابتة فى حافة النهر فى هدأة الفجر .

« ولكن ، من تكون القراب ؟ » .

واقترعن على ذلك ، وبرزت فتاة من صفوف العذارى ، وامعن ليفكو النظر فيها ، وكان وجهها وثوبها يحساكى وجوه الاخريات وثيابهن سواء بسواء ، على انه لاحظ انها لم تقبل على اداء دورها فى اللعبة ، واصطفت جماعة الفتيات فى دائرة ، وانطلقن مبتعدات عن العدو الكاسر .

وقالت الفتاة وقد ادركها التعب والاجهاد : « كلا ، فلست اريد ان اكون القراب ، وانه ليحزننى ان اخطف الفراخ من امهن المسكينة ! » فقال ليفكو بينه وبين نفسه : « لست انت هى الساحرة ! » .

« ومن تكون القراب ؟ » . وتهيات الفتيات للاقتراع مرة اخرى . وابدت فتاة كانت تتوسط الجماعة استعدادها للقيام بهذا الدور قائلة : « لآكن انا القراب ! » .

ونظر ليفكو فى وجهها بامعان ، وانطلقت الفتاة تتابع الحلقة فى جراحة وسرعة ، واندفعت متنقلة من جانب الى جانب لتقبض على ضحيتها ، واذا بالفتى يلاحظ فجأة ان جسمها لا يبلغ فى شفافيته مبلغ الاخريات ، فقد كان يبدو للعين فى طوايا جسمها شىء معتم ، وانبعثت فى الجوى صرخة على حين غرة ، فقد انقض القراب على فتاة من الحلقة ، وامسك بها ، وخيل الى ليفكو ان الفتاة التى كانت تقوم بدور القراب قد ابرزت مخالباها ، وتألقت وجهها فجأة ببريق من الحقد والشر .

فقال وهو يشير بأصبعه إليها فجأة مرتدا الى شطر المنزل :
« الساحرة ! » .

وضحكت الفتاة المظلة من النافذة ، وقادت الفتيات الاخريات وهن
يصحن : الفتاة التي أدت دور الفراخ .

« كيف أجزيك على ما فعلت أيها الشاب ؟ انى لأعلم انك لست
فى حاجة الى الذهب ، وانما انت تحب حنة ، ويأبى أبوك الغليظ
القلب أن يزوجك أياها ، على أنه لن يعترض بعد اليوم طريقك ،
فهاك ! وخذ هذه الرسالة اليه » .

وامتدت يدها البيضاء ، وفاض وجهها بنور وبهاء عجيبين ، وأطبقت
يد الفتى على الرسالة ، ودق قلبه فى شوق واهتمام وقد غلبه القلق
على أمره ، ثم ... استيقظ من نومه ! .

اليقظة

وتساءل ليفكو ، وهو ينهض من الرابية : « ترى هل كنت فى منام ؟ » ، ثم قال وهو يتلفت حوله : « لقد كان ذلك كله اقرب الى الحياة كأنما هو قد حدث فعلا ، يا للمعجب ! » .

وتبين ليفكو اذ رأى القمر يعتلئ كبد السماء فوق رأسه تماما ، ان الليل قد انتصف وكان السكون يخيم على أرجاء المكان جميعه ، وانبعث من البركة هواء بارد قر ، وقام القصر القديم بمصاريعه المفلقة امامه يجلله الحزن والاسى ، وقد لاح من الطحلب والأعشاب الطويلة أن أهله هجره منذ أمد بعيد ، ثم بسط ليفكو يده التى كانت منقبضة فى احكام وهو مستسلم للنوم ، وصاح مذهولا اذ أحس بوجود الرسالة فيها ، وقال يحدث نفسه وهو يقلب الرسالة بين يديه ، ويتأملها من جميع نواحيها : « آه ! لو كنت أستطيع ان أقرأ ! » وفى تلك اللحظة سمع صوتا ينبعث من خلفه .

« لا تخافوا ، واقبضوا عليه فى الحال ! ما بالكم تخافون ؟ اننا اثنا عشر ، وانى لأراهنكم بأى شىء على أنه رجل وليس بشيطان ! » وهكذا أخذ شيخ القرية يصيح فى رفاقه ، وأحس ليفكو بأيد تمسك بتلابيبه ، وكان بعضها يرتعد خوفا وفزعا ، وقال الشيخ وهو يقبض عليه من بنية ثوبه : « اخلع هذا الثوب الخيف يا صديقى ! ودعك من السخرية

بالناس ! « ، ولكن الدهشة عقدت لسانه عندما وقع بصره عليه ، فصاح وهو يتراجع مذهولا وبرخى يديه : « ليفكو ولدى ! هل هو انت يابن الكلب ! آه ربيب الشيطان ! لقد كنت اتساءل : من يكون ذلك الوغد ؟ واى شيطان تقمصه فراح يلعب تلك الالاعيب ؟ اذن فهذا كله من صنعك ! الا فليقص حلق ابيك بهلام لم يتم نضجه ! ايطيب لك ان تثير كل هذا الشغب فى الطريق وتؤلف هذه الاغانى ؟ آه يا ليفكو ! ما معنى هذا ؟ يبدو ان ظهرك يتحرق شوقا للعصا ! شدوا وثاقه ! » .

فقال ليفكو : « اصبر قليلا يا ايت ! فقد طلب منى ان اسلمك الرسالة » .

« ليس هذا بالوقت المناسب لتلقى الرسائل يابنى ! شدو وثاقه ! » وقال الكاتب وهو يفض الرسالة : صبرا ايها الشيخ الموقر ، فانها بخط المأمور » .

« بخط المأمور ؟ » .

وردد الشرطة من غير وعى : « بخط المأمور ؟ اليس هذا بمجيب ؟ وى ! لقد ازداد الامر غرابة على غرابة ! » .

وقال ليفكو يحدث نفسه : « بخط المأمور ؟ » .

وقال الشيخ : « اتلها ، اتلها ! وقل لنا ماذا كتب المأمور ؟ » .

وقال مقطر الخمر وهو يقبض على غليونه بأسنانه ويشعل عودا من الثقاب :

« لنسمع ما كتب المأمور » .

وتنحج الكاتب واخذ يقرأ :

« امر الى شيخ القرية بيفتوخ ماكو جونينكو : بلغنا ايها الغيبى

العجوز أنك انصرفت عن جمع الضرائب المتأخرة وحفظ النظام في القرية ، وركبت مركب الحمافة وسلكت سلوكا مشينا .. » .

فقاطعه الشيخ قائلا : « اقسام بشرفى اننى لا أستطيع ان اسمع كلمة مما تقرأ ! » .

وشرع الكاتب يقرأ من جديد :

« امر الى شيخ القرية بيفتوخ ماكو جونينكو : بلغنا ايها الغيبى العجوز أنك ... » .

فصاح الشيخ : « كف ! كف ! ولا تقرأ هذا ، فاننى - وان كنت لم اسمعه - لأدرك أنه ليس هو بيت القصيد ، اقرا ما بعده ! » .

« ولذلك فانى آمركم بأن تعقد لابنك ليفكو ماكو جونينكو على حنة بتريشينكو وهى فتاة قوزاقية من قريرتكم ، كما آمركم باصلاح الجسور القائمة فى الطريق العام ، والا تعطو الخاصة من رجال المحاكم جياذ القرويين بغير اذن منى ، ولو جاءوا اليكم رأسا من ديوان الحكومة ، واذا وجدت حين قدومى اليكم ان هذه الأوامر لم تنفذ عددتك مسئولا دون سواك عن ذلك - المأمور : الملازم المتقاعد كوزومادركاش دريشبانوفسكى .

وقال الشيخ وقد ففر فاه عجبا : « وى ! او سمعتم هذا ؟ سيكون الشيخ مسئولا عن ذلك كله ، ومن ثم وجب عليكم ان تطيعونى بلا قيد ولا شرط ان يحل بكم العقاب » ، ثم التفت الى ليفكو ومضى يقول : « اما أنت ، فسأزوجك اياها ، ما دام المأمور قد قضى بذلك ، وان كنت لا ادرك كيف بلغه النبأ ، على أنك ستذوق اولاً طعم سوطى ! وانت تعرف السوط الجديد المعلق على الجدران قرب الايقونات ، ولاستعين به غدا ، ولكن من اين لك بالرسالة ؟ » .

وعجب ليفكو مما آلت اليه الأمور ، على انه كان من الحصافة بحيث
اعد في ذهنه جوابا عن هذا السؤال وان اخفى الحقيقة عن الوسيلة
التي حصل بها على الرسالة .

ثم قال : « لقد كنت فى المدينة الليلة الماضية ولقيت الأمور وهو
يهبط من عربته ، فلما علم اننى قادم من هذه القرية ناولنى الرسالة،
وطلب منى ان انقل اليك يا ابت انه سيمر بنا فى طريق عودته ويتناول
العشاء معنا » .

« هل قال هذا ؟ » .

« أى نعم » .

قال الشيخ فى شىء من العزة والاعتداد بالنفس وهو يلتفت الى
رفاقه : « هل سمعتم ؟ ان الأمور قادم بشخصه ليزور من هم على
شاكلتنا ، أجل انه قادم الى ليتناول العشاء ، ورفع اصبعه ثم رفع
راسه كأنما كان ينصت الى شىء ، واردف يقول : « الأمور –
اتسمعون ؟ الأمور – قادم ليتناول العشاء معى ، فما رايك ايها
الكاتب المحترم ؟ وما رايك انت ايها الصديق ؟ ان هذا لتكريم لا يمكن
ان يستخف به المرء . اليس كذلك ؟ » .

وقال الكاتب : « لم يسبق لشيخ قرية فيما اذكر ان حظى بجلوس
المأمور الى مائدته لتناول العشاء ! » .

وقال الشيخ فى لهجة الفخور المختال : « فرق بين شيخ وشيخ
ثم التوى فمه ، وانطلق من بين شفتيه شىء قريب من الضحكة
الخشنة ، بل اقرب الى قصف الرعد يترامى اليك من بعيد ، ومضى
يقول : « ألا تظن ايها الكاتب المحترم انه ينبغى علينا اكراما لهذا
الضيف الجليل المقام ان تصدر الاوامر بان يساهم كل كوخ بدجاجة

على الاقل وشيء من الكتان ، ثم بشيء غير ذلك . فما رأيك ؟ .
« أجل ، هذا ما ينبغي لنا ايها الشيخ الموقر » .

وسال ليفكو : « ومتى يكون الزفاف يا ابت ؟ » .

« الزفاف ؟ كان بودى أن أريك كيف يكون الزفاف ! ولكن ليأتين القس غدا اكراما لضيفنا الجليل المقام ويعقد قرانك ، لعنة الله عليك ! وليعلمن المأمور كيف تكون المبادرة الى أداء لواجب . والآن ايها الفتيان ، لقد حان وقت النوم فعودوا الى دياركم ! فان ما حدث اليوم ليذكرنى بالايام التى كنت فيها .. » وما ان نطق الشيخ بهذه الكلمات حتى القى بنظرة من تحت حاجبيه أفصحت عما ألفه من التباهى بخطر مركزه واعتزازه بنفسه .

وقال ليفكو : « وليحدثنا الشيخ الآن كيف قام بمهمة الدليل للقصيرة ! » ثم مضى مسرع الخطى ، وقلبه يطفح بشرا ميمما شطر الكوخ المألوف الذى تكتنفه أشجار الكرز القصيرة العود ، وقال يحدث نفسه : « جعل الله ملكوت السموات بين الملائكة الأبرار فى العالم الآخر ! تالله لن أقص على أحد نبأ تلك الأعجوبة التى حدثت الليلة ، وحسبى أن أقصها عليك أنت وحدك يا حنة ، ولنصلين أنا وأنت مبتهلين الى الله أن ينزل سكينه على تلك العذراء الفريقة المنكودة الطالع ! » .

واقترب من الكوخ فألقى نافذته مفتوحة ، وضوء القمر ينساب من خلالها ، فيغمر حنة وهى مستسلمة للكرى وقد توسدت ذراعها ، وتوردت وجنتاها بقبس ناعم رقيق ، وتحركت شفثاها تهتفان باسمه فى همس رقيق : « نامى يا ريحانة القلب ، واحلمى بخير ما فى هذا العالم ، ولو أنه لا يفضل ما حل بنا من يقظة » .

ورسم عليها علامة الصليب ثم اغلق النافذة ومضى يسترق الخطى .

وما انقضى على ذلك بضع لحظات حتى كانت القرية كلها قد اخلدت للنوم ، ولم يبق الا القمر يسبح وحده متالقا رائع الحس في فضاء السماء الأوكرانية الرائعة الذى لا يعرف نهايته الا الله ، أجل ، لقد كان يشرف على القرية من عليائه ذلك الجلال المعهود ، وكان الليل ، الليل القسدى ، يشيع فى مناكبه تلك العظمة المهيبة الماثورة . أما الأرض فلم تكن دون ذلك سناء وسنا وهى تترقد فى فيض من هذا الضوء الفضى البديع ، الا أن اهل القرية جميعا كانوا قد أسلموا جفونهم للنوم ، فلم يستمتع احد بهذا المنظر الجميل ، وخيم السكون الا من نباح الكلاب ينبعث من حين الى حين ، وظل كالينيك الثمل يترنح فى الطرقات الهاجعة وقتنا طويلا يلتمس الطريق الى كوخه .

الخطاب الضائع



الخطاب الضائع

قصة حقيقية يرويها قندلفت

اتريدون منى اذن ان اروي لكم قصة عن جدى ؟ لا بأس ، وماذا على اذا رويت لكم قصة من قصصه ؟ آه من هاتيك الأيام الخالية ! ولشد ما يبهج القلب ويثلج الفؤاد ان يسمع المرء بما حدث فى هذا العالم منذ امد بعيد تعجز الذاكرة عن رده الى موقعه من السنة والشهر ! فاذا ما تناولت القصة قريبا من اقربائى سواء كان جدا او جدا لجد ، خيل الى - وليدهمنى السعال وانا اترنم بنشيد القديسة فارقار الشهيدة لو كنت من الكاذبين - اننى اقوم بدوره جميعا فى تلك القصة كأنما تقمصت روح جدى الاكبر، او ان روح هذا الجد قد أخذت تتولانى بالاعيبها .

ويحق لى ان اذكر فتياتنا ونساءنا الصغيرات هن اكثر الناس ازعاجا لى واقلا لراحتى ، ذلك انهن ما ان يلحمننى حتى يهتفن : « فوما جريجوريفتش فوما جريجوريفتش ! هلم ، وارو لنا قصة مخيفة ! اروها لنا وعجل ! » ويمضين فى الحاحهن فلا ارضن عليهن بطبيعة الحال ، ولكن ليتك ترى ما يقع لهن حين يآوين الى فراشهن ! وانى لاعلم وايم الحق ان كل واحدة منهن ترتجف اوصالها تحت اللحاف كأنما ركبتها الحمى ، ويطيب لها ان تنطوى تحت جلد الماعز تخفى فيه رأسها وجسمها جميعا ، ولو ان جرذا نبش فى قدر او لمست

هى بقدمها محرك النار لأخرجها ذلك عن وعيها أو كاد ، ولكنها تعود فى اليوم التالى فتلع على الحاحا مزعجا لأقص عليها قصة مخيفة كأنما لم يصبها من قبل شىء ، فماذا عسأى أن أروى لكم ؟ لا يحضرنى شىء فى هذه اللحظة ولكن صبرا ! لأقص عليكم كيف سخرت الساحرات بجدى ، ولا حيلة لى فى أن أبدا قصتى برجاء أتوجه به اليكم أيها الأصدقاء الأعزاء ، وهو الا تقاطعونى والا اختلطت القصة على اختلاطا لا يستسيغه أحد :

كان جدى ، ولا أخفيكم ، زعيما من زعماء القوزاق فى أيامه ، يعرف القراءة والكتابة ويعرف الى ذلك كيف يستعمل علامات الترقيم ، وكان اذا حل عيد من أعياد القديسين راح يتلو سفر أعمال الرسل فى صوت يتضاءل بجانيه صوت ابن أى قس من أبناء القسس اليوم ، وأنكم لتعلمون من غير حاجة الى أن أقول لكم ما أقول ، أنكم لو جمعتم فى تلك الأيام كل من يعرف القراءة والكتابة فى باتورين بأسرها ما احتجتم الى قبعة احدكم لوضعهم فيها ! ذلك أنهم لم يكونوا يتجاوزون جميعا حفنة اليد ، ولا عجب اذن فى أن جدى كان لا يلقاه احد الا انحنى له ، وبالغ فى الانحناء أيضا .

وطرا على بال زعيمنا القوزاقى النبيل ذات يوم أن يبعث بخطاب الى القيصرة ، وارسل كاتب الفرقة فى تلك الايام - وأنا لا أستطيع أن أذكر هل كان اسمه هو فيسكريباك او موتوزتشكا او جولوبوتسك او شيئا من هذا القبيل ؟ وكل ما أذكره انه كان اسما غريبا يبدأ بداية غريبة - أقول ان كاتب الفرقة فى تلك الايام ارسل فى طلب جدى ، وأنباه ان الزعيم القوزاقى نفسه قد اختاره رسولا الى القيصرة ، ولم يك جدى يحب أن يضع الوقت فى التأهب والاستعداد ، فخاطب الخطاب فى قمة قبعته واخرج جواده وقبل زوجته وخنزيريه الرضيعين كما

الف أن يسمى ولديه - وكان أبى أحدهما - وأثار من الفبار فى ذلك اليوم ما بثيره خمسة عشر صبيا يلعبون لعبة صاخبة فى عرض الطريق، ووصل جدى الى كونوتوب فى صبيحة اليوم التالى قبل ان يصيح الديك للمرة الرابعة ، وكانت السوق وقتئذ قائمة فيها ، وقد امتلات طرقاتها بزحمة من الجماهير تصيب رأسك بالدوار اذا أمعنت النظر فيها ، الا ان الوقت كان مبكرا وقد تمدد القوم جميعا على الأرض واستفرقوا فى النوم ، واستلقى فتى عرييد أحمر الانف كالدقناش (١) بجوار بقرة .

وراحت بائعة متجولة ، تبيع صوان الزناد ورزما من « الرش » الصغير الأزرق وحزما من التبغ ، تفت فى النوم حيث تهاوت على مقربة منه ، واستلقى رجل من النور تحت عربة ، واعتلى صاحب عربة من القوم عربة مملوءة بالسلك ، وانبطح مسكوفى متلح يحمل الأحزمة والقفاذات فى عرض الطريق وقد برزت ساقاه . وصفوة القول ان المكان كان حافلا بسوقه من القوم على اختلاف الانواع والاشكال ، كما هى العادة فى الأسواق جميعا ، ووقف جدى يلقى نظرة حوله ، على حين دبب الحركة فى الخيام ، فأخذت اليهوديات يقعقعن بقواريرهن ، وارتفع الدخان حلقات هنا وهناك ، وغمرت رائحة الكعك الساخن المخيم كله ، وتذكر جدى أنه لم يك يحمل معه صوفانة أو تبغا ، فشرع يتجول فى السوق ، وما أن سار عشرين خطوة حتى لقى قوزاقيا من زابوروجى كالشعلة المرحة ، كما يستبين لأول وهلة من وجهه ! ونظرة واحدة الى سرواله الأحمر الوهاج ، وسترته الزرقاء الكاسية ، وحزامه المزدان بالأزهار الزاهية الألوان ، وسيفه المثبت الى جانبه ، وجليونه ذى السلسلة النحاسية الجميلة تسترسل حتى

(١) الدقناش . عصفور صدره أحمر .

تبلغ كعبيه - كافية للدلالة على أنه يمثل قوزاق زابورجى أصدق تمثيل . آه ! لقد كان هؤلاء القوزاق من أبرع الراقصين ! وحسب الواحد منهم أن ينهض ويتمطى ويربت شاربته الاثيق ، ويضرب كعبيه الحديدين كل بالآخر - ثم يبدأ ! وبألها من بداية ! ان ساقيه لتدوران كأنهما المغزل في يد امرأة ، وتجذب أصابعه أوتار البندورة جميعا كالاعصار ، ثم يضع ذراعيه فى خاصرتيه ويشرع فى الرقص أو يأخذ فى انشاد اغنية تثير فى قلبه ما تثير ! أجل ، لقد ولت الايام الخالية بطلوها وخيرها ، ولم تعد ترى اليوم زابورجيا واحدا من هذا القبيل !

والتقى الرجلان ، وكان بينهما حديث ، ولا يطول الأمر باثنين حتى يصبحا من الأصدقاء ، وراحا يتحدثان ثم يتحدثان حتى نسي جدى كل ما يتصل برحلته ، وسكرا سكرة على مالوف القوم فى حفلات الزفاف تقام قبل الصوم الكبير ، وانى لأحسب انهما لم يكفا عن الشراب الا بعد أن حل بهما التعب آخر الأمر وكلت أيديهما من تحطيم القدور والقاء النقود على الناس ، واى سوق تدوم الى ما شاء الله ؟ وهكذا اتفق الصديقان الجديدان على أن الا يفترقان وأن يمضيا معا فى رحلتهما . وكان المساء قد أوشك أن يحل عندما ركبا جواديهما وخرجا فى العراء ، وغربت الشمس فلم يبق فى موضعهما الا خيوط حمر تتوهج هنا وهناك فى السماء ، وكان الريف يزهر بالحقول وقد اختلفت ألوانها ، فبدت أشبه بالنقبات المبرقشة ترتديها فتياتنا الكحيلات العيون أيام الراحة .

وانطلق لسان القوزاقى بالحديث انطلاق من اصابته جنة مما حمل أبى وفتى آخر خفيف الروح كان قد لحق بهما على الظن بأن الرجل قد ركبه الشيطان . وتساءلا فى دهشة : من اين له بكل هذا الحديث

الذى حوى من اعاجيب الحكايات والقصص ما كاد ينشق له جنبنا
جدى من الضحك ؟ على ان الظلام اخذ يشتد كلما أوغلوا فى السر ،
وأخذ الحديث المرح يزداد لهللة وتفككا ، والتزم راوينا الصمت آخر
الامر ، وكان يجفل اذا احس بأقل حفيف .

فقلا له : « واهأ لك ايها الجار ! لقد بدأت تومئ فى جد ووقار
وانك لتتمنى الآن ان تكون فى دارك مخلدا الى اريكة الموقد ! » .
فقال فجأة وهو يلتفت اليهما ويحدق فيهما بنظرانه : « ما بى من
حاجة الى اخفاء الامر عنكما ، أو تعلمان اننى قد بعث روحى للشيطان
منذ امد بعيد ؟ » .

« كأنما جئت نبأ جديد لم يسمع به أحد من قبل ! ومن ذا الذى
لم يعامل الشيطان فى يومه ؟ وهذا هو السر فى المثل الذى يقول :
« لتجرعن كأس السرور حتى الثمالة » .

فقال وهو يشد بيده على ايديهما : « آه يا صاحبي ! لقد كنت
أحب ان اجرع كأس السرور ، ولكن ساعتى الاخيرة سوف تحل هذه
الليلة ، ولن أنسى صداقتكما ما حييت ! » .

وما ضر لو ساعد المرء اخاه اذا نزل به مثل هذا البلاء ؟ واقسم
جدى لتوه انه لخير عنده ان تنزع قنزعته عن جلد رأسه من ان
يسمح للشيطان بأن يتشمم بانفـه الذى يشبه أنف الكلب نفسا
مسيحية .

ولعل اصحابنا القوزاق كانوا خليقين بأن يمتطوا صهوات جيادهم
ويمضوا فى طريقهم لو لم يفسح السحاب رقعة السماء جميعا كأنه
نسيج اسود من غزل البيوت ، أو لم يضرب لونها الى الظلمة الحالكة
كأنما غطاها جلد الماعز ، وكان ينبعث على البعد ضوء يتلألا ،

وأحست الجياد بوجود حظيرة قريبة ، فأسرعت الخطى وهى ترهف أذانها وتحملق فى الظلام ، ولاح الضوء كأنه يتطسائر طيرانا للملاقة القوزاق الثلاثة ، وراوا امامهم حانة تميل على جانب كأنها فلاحه تسير فى طريق عودتها الى دارها من حفلة عماد مرحة ، ولم تكن الحانات فى تلك الايام كما هى عليه اليوم ، فقد كانت اضيق من ان تتسع لرجل طيب يدور او يرقص رقصة الهوباك ، او يجد حقا مكانا يرقد فيه لو قد حدث أن الخمر شعشعت فى رأسه وأخذت ساقاه ترسم حلقات على أديم الأرض ، وكان فناء الحانة قد حفل بمربات الحوذية وازدحمت جنباته جميعا ، وكان الرجال يرقدون تحت السقائف وفى المداود ومخازن الجبوب ، يفتون فى نومهم بين متربع ومستلق الا صاحب الحانة ، فقد كان يقظان يجلس أمام مصباحه الصغير الذى اتخذه من قدر ، يحز فى عصاه حزوزا يسجل بهما عدد ما شربه الحوذية من اثمان الجالونات وأرباعها .

وطلب جدى ثلث سطل له ولصاحبه ، ثم يم شطر مخزن الجبوب، واستلقى الرجال الثلاثة على الأرض جنباً الى جنب ، وما أن هم جدى بالالتفاف حتى كان صاحبه قد استفرقا فى النوم استفرقا ، وأيقظ جدى القوزاقى الثالث الذى كان قد لحق بهما وذكره بالعهد الذى عاهدا عليه رفيقهما ، وجلس الرجل وفرك عينيه ثم أخذ للنوم مرة اخرى ، ولم يجد جدى فى الأمر حيلة ، فاضطر الى القيام بالحراسة وحده ، واراد أن يدفع الكرى عن عينيه بأى وجه فاخذ يتفحص العربات جميعا ويلقى نظرة على الجياد ، ثم أشعل غليونه وعاد أدراجه . وجلس مرة اخرى بجوار صاحبيه ، وشمل السكون كل شيء حتى لقد بدا أنه ما من ذبابة واحدة كانت تتحرك ، ثم خيل اليه أن شيئاً أصهب اللون قد دفع بقرونه من تحت عربة قريبة منه ، على أن عينيه

اخذنا تطوفان ، فحمله ذلك على أن يفكرهما كل لحظة بقبضة يده وان يعمل جاهدا على أن تظلا مفتوحتين مستعينا بما بقى من الفودكا، وكانت الفشاوة لا تنجاب عنهما حتى يختفى كل شيء أمام ناظره .
وظهر الشبح مرة أخرى بعد ذلك بقليل من تحت العربة ، وفتح جدى عينيه بقدر ما وسعه ، ولكن النعاس الملعون اغطش كل شيء ، ودب الخدر فى يديه ، ومال رأسه على جانب ، واستغرق فى نوم هادىء كأنه أصبح فى عداد الأموات ، ونام جدى ساعات وساعات ، ولم ينتصب واقفا على قدميه الا عندما أخذت الشمس تلسع رأسه الحليق ، وتمطى مرات ومرات وحك ظهره ، ثم لاحظ أنه لم يبق فى الفناء ذلك العدد الكبير من العربات الذى كان فيه بالأمس ، ذلك أن الحوذبة كانوا قد رحلوا بلا ريب قبل طلوع الفجر ، ويبحث عن صاحبيه ، فتبين له أن القوزاقى لا يزال يفظ فى نومه ، أما الزابورجواى فكان قد رحل ، ولم يستطع أحد أن ينبئه بشيء عن ذلك الرجل ، ولم يجد فى مكانه المهود أثرا ينم عليه الا معطفه .

وتملك جدى الرعب واختلط عليه الأمر، ومضى يبحث عن الجوادين فلم يجد أثرا لجواده أو جواد الزابورجواى ! ترى ما السر فى ذلك ؟ وهب أن الشيطان قد أخذ الزابورجواى ، فمن يكون ذلك الذى أخذ الجوادين ؟ وفكر جدى فى الأمر مليا وخرج من ذلك بأن الشيطان قد أقبل على الأرجح سرا على قدميه ، فلما أنس بمد الشقة بينه وبين الجحيم استولى على جواده هو ، واشتد اضطراب جدى لأنه لم يف بما عاهد عليه القوزاقى .

وقال يحدث نفسه : « ليس فى الأمر حيلة ، ولأَمْضِينَ سرا على على قدمى ، وأرجو أن يصادقنى تاجر خيل فى طريق عودته من السوق فتنبها لى الفرصة لشراء جواد » . ولكنه ما أن شرع يبحث عن قبضته

حتى وجد أنها قد اختفت أيضا ، وأخذ يفرك يديه كل بالأخرى ،
اذ تذكر أنه كان في اليوم السابق قد بادل الزابوروجاوى قبعته الى
حين ، وهيهات أن يكون قد سرق قبعته الا الشيطان نفسه ! يا له من
رسول أمين ! ويا للمهمة الجليلة التي اضطلع بها لتسليم ما جعله
فيما أحسب يعطس في الجحيم مرة في اثر مرة ، الا أن السباب
لا يفيد كثيرا .

وعجز جدى عن الاهتداء الى اية خطة على الرغم من أنه أخذ يحك
راسه كثيرا ، وسقط في يده وتحير : ماذا يفعل ؟ ورجع الى القوم يلتمس
عندهم الراى ، وجمع من كان يلوذ بالحانة في ذلك الوقت من أهل
الصلاح ، أجل جمع الحوذية وعابرى الطريق من البسطاء ، وحدثهم
بما كان من أمره وما نزل به من كرب ، وفكر الحوذية طويلا وأسندوا
ذقونهم على أسواطهم ثم هزوا رءوسهم وقالوا انهم لم يسمعو قط
في العالم المسيحي بعجيبه كهذه يختلس فيها الشيطان خطاب زعيم
من زعماء القوزاق ، وزاد آخرون بأنه اذا سرق الشيطان او اى
شخص من المسكوف شيئا جاز لك أن تسترده باطلاق صفارة من
فمك ، ولم يشد عن الجماعة الا صاحب الحانة ، فقد جلس ملتزما
الصمت فى ركن الغرفة ، فقصد جدى اليه ، ذلك ان الرجل اذا
امسك عن الكلام كان حكيما ، على أن صاحب الحانة كان يتحاشى
الكلام ، ولو لم يخرج جدى من جيبه خمس قطع ذهبية لظل الرجل
على الأرجح واقفا امامه لا ينال منه منالا .

وقال صاحب الحانة وهو ينتحى به جانبا : « لأرشدك الى طريقة
تجد بها الخطاب » ، وانزاح حمل ثقيل عن صدر جدى ، ومضى
صاحب الحانة يقول : « فانى المح فى عينيك انك قوزاقى أصيل
ولست غرا ابله ، فالتق الى بسمعك ! ان ثمة منعطفا فى الغابة بالقرب

من هذه الحانة ، وما عليك الا ان تتأهب للرحيل اذا اخذ الليل يرخى سدوده ، ولتجدن فى الغابة قوما من النور يخرجون من اوكارهم لطرق الحديد فى الليالى التى لا يخرج فيها الى العراء الا الساحرات يسعين على محركات النار ، وخير لك الا تسأل عن حرفتهم الحقيقية ، ولتسمعن طرقا كثيرا فى الغابة ، فلا تمض الى حيث تسمع الطرق ، ولتجدن ايضا دربا صغيرا يواجهك قرب شجرة محروقة فاسلك هذا الدرب ، وواصل السير ، وقد تنخدش الاشواك قدميك ، وتسد عليك شجيرات البندق الكثيفة مسالك الطريق ، فلا تكف عن السير وامض فى سبيلك حتى تبلغ جدول ماء صغيرا ، تجد هناك بفيتك ، ولكن لا تنس ان تضع فى جيوبك ما صنعت من اجله الجيوب ، فانك تعلم ان الشياطين والأتاسى على السواء يطيب لهم ذلك » .

وما ان فرغ صاحب الحانة من قوله هذا حتى مضى الى الركن الذى كان يأوى اليه ، وأبى ان يزيد .

وكان جدى رجلا جرىء القلب لا يهاب شيئا ، اذا صادف ذئبا لا يتردد فى ان يمسكه من ذيله ، ولو اعمل قبضة يده بين القوزاق لسقطوا على الأرض سقوط الكمثرى من الشجر فى اعداد غفيرة . على انه احس بالخوف يدب فى قلبه عندما دخل الغابة فى تلك الليلة الحالكة التى غابت نجومها عن الأنظار فلم يبد منها نجم واحد ، لقد كان الظلام سائدا والهدوء شاملا كأنك فى قبو من اقبية الخمر ، وانبعثت ريح باردة من اجواز الفضاء تعصف بقمم الأشجار ، فأخذت تتمايل على غير هدى كأنها رهوس القوزاق عبوا من الخمر حتى ثملوا ، وراحت اوراقها تهمس بأغنية نشوى تهتز اعطافها بفعل الراح ، ثم هب اعصار بارد جعل جدى يفكر فى جلد معاز ، ولم يلبث ان سمع صوتا كأنه ينبعث من مائة مطرقة اخذت تدق فى الغابة

محدثة من الدوى والضجيج ما يصيب الأذن بالطنين .

وغمر الغابة لحظة ضوء لا تمهده الا في بروق الصيف ، ولح جدى دربا صغيرا يلتف بين الأشجار القصيرة العود في هذا المكان ، وهنا وجد الشجرة المحروقة ، وهنا وجد شجيرات الحسك ! أجل ، لقد وجد كل شيء على الحال التى وصفت له ، اذن فقد صدق صاحب الحانة ولم يكذبه ! على ان نفسه لم تطلب لما وجد وهو يشق طريقه شقا خلال الشجيرات الشائكة ، ذلك انه لم يعرف فيما مر من حياته قط ان تلك الفصون والأشواك الملعونة تصيب المرء بمثل هذه الخدوش الاليمة . وكان يحس فى كل خطوة بخطوها بعذاب يوشك ان يبعثه على البكاء . وسار رويدا رويدا حتى خرج الى مر ، ورأى على قدر ما امتد بصره ان الأشجار أخذت تتفرق ويزداد ما بينها اتساعا ، وكلما مضى فى سيره صادف أشجارا تزيد فى ضخامتها عن كل ما رآه فيما وراء بولندا ، ثم وقع نظره فجأة على جدول صغير يتألق بين الأشجار ، أسود كالصلب المقسى ، ووقف جدى وقتا طويلا على ضفة الجدول يتلفت حوله ، ولاح من الضفة الأخرى وميض يتلالا لحظة ثم يوشك ان ينطفىء ، ثم يعود فينعكس على صفحة الجدول وينتفض انتفاض البولندى فى أبدى القوازيق ، ثم ها هو ذا الجسر الصغير قد تكشف ! .

« انى لاحسب ان هذا الجسر لا تستطيع عبوره الاعرية الشيطان نفسه ! » .

على ان جدى تقدم غير هيب ولا وجل ، وبلغ الضفة الأخرى للجدول قبل ان تتاح الفرصة لاي مخلوق آخر ان يخرج صندوق سموطه المصنوع من قرن الحيوان ويصيب منه شيئا . ولم يلبث ان رأى فى هذه اللحظة فحسب قوما يجلسون حول نار مشتعلة ، أجل

راى ويا لهول ما راى ! راى سحنا بديعة كسحن الخنازير لو قد راها فى اى وقت آخر لبذل - علم الله - كل مرتخص وغال لتحاشيها ، ولكنه لم يجد بدا من التودد الى هؤلاء القوم ، وهكذا حتى جدى هامته ، وبالغ فى ذلك مبالغة وقال هاتفا : « كان الله فى عونكم ايها القوم الصالحون ! » .

ولم يهتز رأس منهم بايماء واحدة ، بل جلسوا سكونا كان على رءوسهم الطير ، وظلوا يلقون بشيء فى النار ، وراى جدى مكانا خاليا فجلس دون أن يحفل بالأمر كثيرا ، ولم تنطق وجوه الخنازير البديعة بحرف ، ولم ينبس جدى أيضا ببنت شفة ، وأخذ الجمع انى الصمت طويلا ، وبدا السأم يدرك جدى ، فراح يضرب بيده فى جيبه وأخرج غليونه وتلفت حوله ، ولكن أحدا منهم لم يرمقه بنظرة .

« افلا تفضلون على ايها السادة الموقرون ؟ فانى والحق يقال ، اذا سمحتم لى - وكان جدى قد طوف بالعالم كثيرا وعرف كيف يصوغ الخطاب ولم يكن يعوزه اللفظ وان مثل فى حضرة القيصر - أجل اذا سمحتم لى ، دون ان أبخس نفسى حقها او أخرج عن حدود الأدب معكم ، لاود أن أقول : ان عندى غليوننا لا أجد ما أشعله به » .

وأمسك القوم عن الكلام هذه المرة أيضا ، ولم يجب أحدهم بحرف ، الا ان واحدا من ذوى السحن الخنزيرية قذف جمرة حامية فى وجه جدى مباشرة لو لم يجد عنها قليلا لاودت بعين من عينيه الى ما شاء الله ، وتبين له آخر الأمر أن الوقت يمر هباء ، فصح عزمه على ان يقص عليهم قصته ، سواء استمع له هؤلاء القوم الإنجاس او لم يستمعوا . وأرهف القوم آذانهم ومدوا مخالبيهم ، وأدرك جدى ما يريدون ، فأخرج كل ما كان يحمل من مال والتقى

به اليهم كأنهم الكلاب ، وما أن ألقى بما معه حتى اضطرب كل شيء أمامه ، فاهتزت الأرض ، ووجد نفسه فجأة فيما يشبه الجحيم ، ولم يستطع جدى قط أن يطل هذا الجزء من قصته .

وتأوه جدى إذ ألقى بنظرة فاحصة حوله ثم هتف . « رحماك ربى ! » تالله ما كان أبشع من تلك الوحوش ! فقد كان كل وجه أقيح من أخيه ، وكانت الساحرات كثيرات كثرة شقف الجليد تتساقط أحيانا في عيد الميلاد ، وقد تأتقن جميعا في لباسهن وصيغن أنفسهن بالطلاء كما تفعل الحسان إذا أممن سوقا من الأسواق ، ورحن يرقصن ضربا من رقصة الهوباك على طريقة الشياطين كأنما لعبت الخمر برءوسهن . أما الفبار الذى أثرنه فحدث عنه ولا حرج ! .

وأما الفغزات التى أخذت هؤلاء الساحرات من بنات الشيطان يضربن بها في أجواز الفضاء فقد كانت خليفة بأن ينتفض لها قلب أى مسيحي ! وفزع جدى إلا أنه أغرق في الضحك إذ رأى الشياطين بوجوههم الشبيهة بوجوه الكلاب وسيقانهم التى تحاكي المغازل ، يهزون ذبولهم ويلفون حول الساحرات ويدورون كما يفعل فتياننا بالفتيات الجميلات . وأخذ الموسيقيون يضربون خدودهم بقبضات أيديهم كأنها الطبول ويصفرون بأنوفهم كأنها الأبواق ، وما أن رآوا جدى حتى تكأثوا عليه ، وامتدت أعناق وجوه الخنازير ووجوه الكلاب ووجوه الماعز ووجوه الحبارى ووجوه الخيول ، أجل امتدت أعناقها جميعا محاولة أن تقبله ، ولم يسع جدى إلا أن يبصق ، وقد نال منه الاشمزاز مناله ، ثم أمسكوا به آخر الأمر واجلسوه على مائدة طويلة لعلها تبلغ فى الطول مبلغ الطريق من كونوتوب الى باتورين .

وقال جدى يحدث نفسه ، إذ رأى على المائدة لحم الخنزير والمقانق والبصل المفروم بالكرنب وغير ذلك من الأطايب الكثيرة : « لا بأس

بهذا على الاطلاق ! وانى لاحسب ان هؤلاء الطغام من أهل الجحيم
لا يصومون الفرض ! .

ولا اخفى عليكم ان جدى لم يكن ليدع الفرصة تفوته اذا تهيات له
اللحمة الطيبة ، اجل لقد كان هذا الجد العزيز يستطيب الطعام
ويتلذذ به ، فلم يضيع وقتا فى الكلام ، بل جذب اليه طاسا من شرائح
دهن الخنزير وفخذ خنزير مدخن ، وتناول شوكة لا تقل كثيرا عن تلك
التي يذرى بها الفلاح التبن ، وانتقى أكبر قطعة ووضعها على كسرة
خبز ، ولكن يا للعجب ! لقد اندست هذه القطعة فى قم آخر بجوار
اذنه تماما .

وانبعث بلا ريب صوت فكى فتى آخر يمضفها وتلوكها اسنانه
مقعقة قمعقة تصل الى اذن كل من كان يجلس الى المائدة ، ولم يبالي
جدى ما حدث ، بل تناول قطعة اخرى وبدا انه قد امسك بها بين
شفتيه ، ولكنه لم يفلح هذه المرة ايضا فى ان يدفع بها الى حلقه ،
وحاول مرة ثالثة فأخفق ايضا ، واستشاط جدى غضبا ، ونسى
ما كان فيه من رعب ، كما نسى القوم الذين وقع بين برائتهم ، وهرع
انى الساحرات « اتحاولن ان تهزان بى يا سليلات هيرودس ؟ تالله
ان لم ترددن الى قبعتى القوزاقية فى التو والساعة انى برىء من
كاثوليكييتى ان لم الو خطوممكن الخنزيرية حتى تبلغ قفاكن ! .

وما ان القى بهذه الكلمة الاخيرة حتى كشرت الوحوش عن انيابها ،
واطلقت ضحكة مدوية اشاعت الرعدة فى اوصال جدى .

وصاحت ساحرة منهن خيل الى جدى انها زعيمتهن ، فقد كانت
اكثرهن جمالا او تكاد . « لا باس ! ولن نرد اليك قبعتك الا اذا
فزت بها منا فى ثلاثة ادوار من لعبة « المبيط » ! .

فكيف يكون موقفه ؟ أيصح لقوزاقى أن يقعد ويلعب لعبة « العبيط » مع بعض النساء ؟ وظل جدى يرفض اللعب ثم يرفض ولكنه جلس آخر الامر ، وجاءت الساحرات بأوراق اللعب ، فكانت حزمة يفشاها الشحم على غرار تلك التى تستعملها بنات القسس فحسب ليكشفن عما يضمره لهن الغيب من أزواج .

وصاحت به الساحرة مرة أخرى فى صوت كالنباح قائلة : « استمع الى ! لتكونن القبعة من نصيبك اذا فزت فى دور واحدا ، أما اذا خرجت من الأدوار الثلاثة وكان من نصيبك « العبيط » فلن ترى قبعتك ومن يدري لعلك لا ترى العالم مرة أخرى ؟ » .

« هلمى ، وزعى الورق أيتها الساحرة الحيزبون ! وليكن ما يكون ! » .
ووزع الورق ، وتناول جدى نصيبه منه ، فألفاه كله تافها لا غناء فيه ، فأشاح عنه اشمازا ، وكأنما أراد القدر أن يسخر منه فلم يواته بورقة واحدة رابحة ، أما بقية الورق الذى وقع فى يده فكان أعلى ورقة فيه هى « العشرة » ولم يكن معه ورقة واحدة من ورقات « الاثنتين » وظلت الساحرة تدفع اليه بالورقات خمسا خمسا ، وشاء القدر أن يكون جدى فى هذا الدور هو « العبيط » وما أن خرج من الدور بهذا النصيب حتى ارتفعت أصوات الوحوش من كل جانب تسهل وتنبح وتقبع وتنادى هاتفة « عبيط ! عبيط ! عبيط ! » .
فصاح جدى وقد سد اذنيه بأصابعه : « فلتصيحوا حتى تنشق حناجركم أيها الشياطين ! » .

وقال بينه وبين نفسه : « ان الساحرة لم تكن أمينة فى اللعب ، ولاوزعن الورق بنفسى » ، ووزع الورق ، وكشف عن الورقة الرابعة ثم ألقى نظرة على نصيبه من الورق ، فوجده مواتيا يشتمل على بعض

أوراق رابحة ، وبدت الأمور فى البداية على خير ما يمكن أن تكون حتى وضعت الساحرة على الأرض خمس ورقات بينها بعض الملوك . ولم يك فى يد جدى الا أوراق رابحة فضارب بها فى سرعة البرق كل الملوك .

« ها ! ليس هذا من شيمة القوزاق ! ما الذى تضاربها به أيها الجار ؟ » .

« بماذا ؟ بالأوراق الرابحة ! » .

« قد تكون فى اعتقادك أوراقا رابحة ، اما فى اعتقادنا فلا ! » .

يا للعجب ! لقد كان نصيبه من الورق من نوع آخر فعلا ! ترى أى حيلة من حيل الشياطين هذه ؟ وخرج من الدور « المبيط » للمرة الثانية ، وراح الشياطين يشقون حناجرهم مرة أخرى صائحين : « عبيط ! عبيط ! » ومضوا فى ذلك حتى اهتزت المائدة وراح الورق يتراقص عليها .

واستشاط جدى غضبا ، ووزع الورق للمرة الأخيرة ، ووافاه الحظ هذه المرة أيضا بورق موات ، وعادت الساحرة فوضعت على الأرض خمس ورقات فضاربها جدى ، وأخذ من الورق عددا من الأوراق التى تبيع .

وصاح : « ورقة رابحة ! » وألقى ورقة على المائدة فى قوة جعلتها تنثنى وتتغضن .

وغطتها الساحرة بشمانى ورقات من نوع آخر دون أن تنبس ببنت شفة .

« بماذا تضربين ورقتى الرابحة إيتها الشيطانة الحيزبون ؟ » .
ورفعت الساحرة ورقتها فاذا تحتها ست ورقات من نوع عادى .
وقال جدى : « يا للحيل الشيطانية ! » ، وضاق صدره ، فضرب

المائدة بقبضة يده بأقصى ما يستطيع من قوة ، ومن حسن التوفيق أن الورق الذى مع الساحرة كان تافها لا غناء فيه ، وشاء الحظ أن يكون مع جدى فى هذه المرة ورقات من ذوات « الاثنيين » ، وشرع يسحب الورق من الرصة ، فألقاه عديم الجدوى . أجل لقد بلغ من تفاهة الورق الذى كان من نصيب جدى أن يئس الرجل فسقطت يده الى جنبه ، ولم يبق فى الرصة ورقة واحدة ، فاضطر أن يلعب بأية ورقة فى يده ، وكانت هى ورقة الست ! ولم تجد الساحرة بدا من اخذها ، ذلك انه لم يبق معها ورقة يمكن أن تضاربه بها « وى ، وى ! ما هذا ؟ لا شك أن فى الامر شيئا ! » ثم رسم جدى اشارة الصليب خفية فوق الورق من تحت المائدة ، ولكن أى شيء وجد ! لقد وجد فى يده الاس والملك والفلام من الاوراق التى تريح ، ولكن الورقة التى ألقى بها لتوه هى ورقة الست بل ورقة الملكة ! .

« يا لغباوتى ! ملك الاوراق الراححة ! اذن فقد اخذته انت ؟ يا سلية القلط ! اتحبين ان تأخذى الاس أيضا ؟ الاس ! والفلام ! » .
وساد الجميع هرج ومرج ، وتشنجت الساحرة ، وطارت القبعة فجأة ، واندفعت بقوة وارتطمت هى ووجه جدى .

وصاح جدى مستجمعا اطراف شجاعته ، ووضع القبعة على رأسه « لا يكفينى هذا ! وتالله ان لم ار جوادى الاصيل يقف امامى فى التو واللحظة لارسمن عليكم جميعا علامة الصليب المقدس ، او تصعقنى الصاعقة فى هذا المكان الدنس ! » ، ورفع يده لينجز وعده واذا بعظام جواده تتمعع امامه ! .
« هاك جوادك » .

وانفجر الرجل المسكين باكيا كالطفل وهو ينظر الى هذه العظام ، وانفطر قلبه اسى على رفيقه العزيز ثم قال : « اعطونى جوادا من أى

نوع كان اخرج به من وكركم ! » ، وفرقع شيطان بسوط ، فبرز من تحته جواد كالشهاب ، وحلق به جدى فى الهواء كأنه الطير .

وتملكه الفزع عندما أخذ الجواد يطوى به الأخاديد والمستنقعات طيا غير عابىء ، بصياح او بلجام ، وكانت الأماكن والبقاع التى اجتازها مخوفة مفزعة بعثت الرعدة فى أوصاله وهو يذكرها فى سياق قصته ، والتى الرجل بنظره الى ما تحته مرة فازداد خوفا ورعبا ، فقد ابصر هوة ، بل هاوية مخيفة ! الا ان الجواد الشيطانى لم يلق اليها بالا ، بل قفز من فوقها لساعته ، وحاول جدى ان يوقف الجواد ولكنه لم يستطع ، وطار الجواد فوق اصول الأشجار والإكام ، ثم انكفا على وجهه فى هوة من الأرض ، وضرب أسفل الهوة بقوة حتى بدا انه قد أسلم الروح ، على ان جدى عجز عن ان يتذكر شيئا مما وقع له ، وما ان أفاق قليلا حتى تلفت حوله ، فوجد النهار يعلوه ، ثم لمح بعض الأماكن المألوفة ، فتبين له انه ملقى على سقف كوخه .

ورسم جدى اشارة الصليب وهو يهبط من السقف ، الا ما أغرب الحيل التى يأتى بها الشيطان ! لعنة الله عليه ! وما أعجب ما يصادف الانسان من أمور ! ونظر الى يديه فاذا بهما مخضبتان بالدم ، ثم نظر فى برميل من الماء فاذا بوجهه هو هو لم يتغير ، واغتسل جيدا خشية ان يفزع الأطفال منه ثم ولج الكوخ فى هدوء ، ويا للمنظر الغريب الذى وقع عليه بصره ! ذلك انه رأى الأطفال يتراجعون لائذين فى رعب ، ثم هتفوا : « انظر ! انظر ان امنا تقفز كالمجنونة ! » ، والحق ان زوجته كانت تغط فى نومها وهى جالسة امام مشط الصوف وفى يدها مفزلها ، وراحت فى نومها تقفز صاعدة هابطة على الأريكة فتناول جدى يدها برفق وأيقظها قائلا : « طاب صباحك يا زوجتى ، هل أنت بخير ؟ » ، وحملت فى المراهة طويلا ، ثم عرفته آخر الأمر

وقالت له : انها رأت فى نومها ان الموقد كان يمتطى صهوة جواد يدور به حول الكوخ ، ويخرج منه بمجرفة القدر والبراميل وغير ذلك مما لا يعلمه الا الله .

فقال جدى : « لا بأس عليك ، فقد رأيت هذه الرؤيا فى منامك ، اما انا فرايتها فى يقظتى ، ولا ريب ان الامر يقتضبنى ان أسعى الى مباركة كوخنا ، ولكننى لا أستطيع ان أطيل المكوث هنا بعد » .

واستراح جدى قليلا بعد ان فرغ من قوله هذا ، ثم التمس جوادا من بعض الناس ، ومضى فى رحلته يواصل الليل بالنهار حتى بلغ غايته ، وسلم القيصرة نفسها الخطاب ، وهناك شاهد جدى امورا غاية فى العجب حتى انه أصبح بعد ذلك بوقت طويل لا يمل من قص قصتها علينا ، وراح يروى لنا كيف جاءوا به الى القصر ، وكيف وجدته مرتفعا ارتفاعا عجيبا لا تبلغ اليه وان وضعت عشرة أكواخ بعضها فوق بعض ، وكيف نظر فى غرفة فلم يجد القيصرة فيها ، ثم مد بصره فى غرفة ثانية فثلاثة بل فى رابعة فلم يفز بطائل ، ثم وجدها فى الغرفة الخامسة تجلس وعلى رأسها تاجها الذهبى ، وترتدى ثوبا رماديا جديدا وحذاء احمر ، وتأكل لقيمات القاضى الذهبية ، وكيف انها أصدرت الامر بملء قبعة الى الحافة بالأوراق المالية الزرق من ذات خمسة الروبلات ، وكيف وكيف .. ولكننى لا أستطيع ان أذكر ذلك كله .

أما عن معاشره جدى للعفاريت فقد نسى الرجل ذلك الامر وانقطع تفكيره فيه انقطاعا تاما . واذا اتفق ان ذكره أحد بما وقع له لزم الصمت كأن الامر لا يعنيه ، والحق انه كان من أشق الأمور ان يقنعه مقنع بأن يروى لنا القصة من أولها الى آخرها . وكان يحدث لزوجته فى الموعد المهود من كل عام حادث غريب ، كأنما كان ذلك عقابا له

على تقاعده عن المبادرة الى التماس البركة لكوخه بعد ان وقع له
ما وقع ، ذلك ان زوجته كانت تقفز ساعده هابطة ولا تستطيع لذلك
دفعها ولا ردا ، وتنطلق ساقاها على هواهما مهما جاهدت كأنما كان
يدفعها الى الرقص دافع لا حيلة لها فيه ! .

**تم الجزء الأول ويليهِ
الجزء الثاني ان شاء الله**

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

السيد / هاشم علي نحاس
جدة - ص . ب رقم ٤٩٣
المملكة العربية السعودية
جدة :

M. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Maroç, 990
Caixa Postal 7406.
Sac Paulo, BRASIL
البرازيل :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopstrophe Road
London S.E. 26
ENGLAND.
انجلترا :

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

128.00
دراهم

هذه الرواية

كان جوجول كاتباً روسياً كبيراً حلو الفكاهة ، تشرق كتاباته بالسخرية المريرة ، وله قصص قصيرة ورويات ومسرحيات قيمة ، وهو يعد صاحب الفضل الأول في التقاليد العظيمة في الرواية التي رفعت الأدب الروسي الى مرتبة الآداب العالمية .
نشأ الكاتب في أوكرانيا موطنه الحبيب ، ووصف حياة أهل الريف فيها ومناظرها الطبيعية الساحرة وصفا رائعا كان السبب في ذبوع صيته في جميع أنحاء روسيا ، وصور تصويرا ساخرا فكاهيا القصص الشعبية ومزج في هذا الوصف بين الواقعي وتهاويل الخيال ، وفكاهته في هذه القصص فكاهة مطمئنة طبيعية لا التعال فيها ، وقد اصطنع فيها حياة البسطاء من الناس بامتقاداتهم في الأرواح والعفاريت واستسواقهم ونوادهم ولهوهم وعبتهم ، وهي تشبه في ذلك كثيرا ريف مصر وأهله .
وقد كتب هذا الجزء سنة ١٨٣١ وهو يضم مقدمة طريفة بلسان بانكو مربى النحل ، وقصة سوق سورو تشنستى ، وهي البلدة التي شهدت مولده ، وقصة ليلة عيد القديس يوحنا ، وقصة المدراء القريبة ، وقصة الخطاب الضائع .